خ. ل. بورخيس

الدنو من المعتصم

ترجمة إبراهيم الخطيب



منشورات نجمة

الدُّنو من المعتصم

خورخي لويس بورخيس

الدُّنو من المعتصم

قصص

ترجمها عن الإسبانية

إبراهيم الخطيب

منشورات نجمة

■ الدنُو من المعتصم، قصص، خورخي لويس بورخيس
ترجمة : ابراهيم الخطيب
■ الطبعة الأولى 1992
■ منشورات نجمة
24 موريس رافيل، الدار البيضاء 05، المغرب

■ التصفيف :
الصحراء للطباعة والنشر
حي ابن سينا، العمارة 27، الشقة 1، الرباط، المغرب
■ السحب : أفريقيا الشرق – 159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 25.95.04 / 25.98.13 -
■ رقم الايداع القانوني : 1992/528

مدخل

اقترح رجلٌ على نفسه مهمةَ رسم العالم: وخلال سنوات طويلة من عمره أثَّث الفضاء بصُور الأقاليم، والممالك، والجبال، والخلجان، والسفن، والأسماك، والمساكن، والأدوات، والكواكب، والخيول، والأشخاص. وقبل أن يقضي نحبَهُ بقليل، اكتشف أن متاهةَ الخطوط الصبورة التي دأب على وضعها إنما تخُطُّ صورةَ وجهه هو. صورةً متحررة من ترهات التاريخ، لأنها شبكة علامات تدور حول ذاتها، وكأنها سديم من الكواكب الآخذة في الانصهار.

يتعلق الأمر بذلك «الانطباع المضني بأن المرء عاش اللحظةَ الحاضرةَ من قبلُ» : فشأنُ أفكارِ (بورخيس)، تبدو كتابتُه أشبهَ بتأمُّل في السبل الملتوية التي تعمل على تَلاَقُحِ الكتابات، وتداخُلِها ثم بروزِها في خلْق سيغدو ذات يوم بحاجة إلى خلق آخر. إن آثاره، التي كُتبت بحرص جميل، بُنيت أساساً على هذه السِّباحة المرتهنة في نصوص الآخرين إلى حد استنْفاد دلالاتها وأشكالها. إنها آثارُ لا تحلل وقائع أو تصفها وإنما تعالج أَدباً في هيأة كُتب، وموضوعات سبق التطرق إليها، وقضايا عُرضت من قبل، وأشخاصاً تحولوا عبر السرد إلى شخصيات. ورغم ذلك، تبقى لكتابة (بورخيس) أصالةُ إعجاز لا تخطئها الملاحظة. بيد أن هذه الأصالة لا تتركز في أسلوب الكاتب، ولا في المزج بين أنواع الخطاب، ولا في سخريته الدقيقة، ولا في رموزه المستمدة من أساطير الفكر البشري، ولا في محاكاته لكتابات أخرى تنتمي إلى بيئات ثقافية بالغة العتاقة والاختلاف، وإنما تتركز في مساءلة الأدب ذاته بشكل منهجي، وفي مساءلة البنيات وأوضاع التلفظ التي ينهض عليها صرح الكتابة المتناهي، والذي لا حصر له في نفس الوقت. إن الأمر يتعلق بكشف الإواليات النصية، وتلمس ماديتها، والقبول الضمني بالعناصر اللغوية التي تشكل هذه الإواليات على أصعدة الذات، والفضاء، والزمن. هكذا يمكن القول بأن كتابات (بورخيس)، التي تعكس نزعته الريبية إزاء النصوص، ورغبته الملتبسة في البرهنة على عدم وجود الزمن، وبالتالي الخطاب الصادر عنه، وخلطه المتواصل بين فعل القراءة

وفعل الكتابة نازعاً عنهما كل أصالة- هذه الكتابات إنما تؤسس أصالتها الخاصة اعتماداً على تحليل أنساق المقاربة الريبية ذاتها عن طريق المساءلة والاستنفاد المضني لدورات التأمل ووظائفه. إننا بإزاء كاتب وقارئ، كاتبِ صيغٍ أخرى لنصوص مقروءة، ونساخٍ متبحر، ومترجم موسوعي، ومفسّرٍ شارح: يتخيل فيما يقرأ، ويقرأ فيما يكتب، فلا يبقى للقارئ، المندهش أمام مشهد هذه العملية المرآوية، سوى إعادة القراءة، ومحاكاة تخييل القراءة، التي هي مصدر الكتابة ذاتها: نبعُها العَكِرُ والصَّافي. وبتعريضه ذاته للاستشهاد بنصوص آخرين أو تضمينها زعما وادعاء، يكون (بورخيس) قد عرض كتابته لخلود معين، هو الخلود الناسخ الذي يقيمه التّوالُدُ المتواصلُ للنصوص عبر سديم لا تاريخ له.

على هذا النحو يرفض الكاتب الأرجنتيني رفضا قاطعاً صفة «الكاتب» لنصوصه، ناسباً إلى شخص آخر، ربما «بورخيس» آخر، أبوتها وكاشفاً بذلك نفْيَهُ العميقَ لكل هوية متوحشة لرجل الإبداع. يتعلق الأمر بمتأدب متسكع، اختار المكتبة مكاناً لضلاله بدلاً من العالم، فابتكر لنفسه طريقة امتلاك متميزة تجعل من هذه المادة الشاسعة، المتنوعة، العابرة للثقافات واللغات، مجازا مطلق الحرية، «معتل الذاكرة»، لكونه لا يكف عن مراوحة الأماكن المستأنسة، حيث جرى كل شيء ثم وقع كتمانه أو نُسي.

إ. الخطيب

« إنني أكتب بجِدِّية الطفل الذي يلهو »

بورخيس

عن الصرامة في العلم

... بلغ فن وضع الخرائط ، في تلك الامبراطورية ، حداً من الكمال أن شغلت خريطةُ إقليم واحد مدينةً بكاملها ، و خريطةُ الامبراطورية إقليماً بأسره . غير أنه مع مرور الأيام ، لم تعد هذه الخرائط المتعذرة الحصر مُرضيةً ، فرفعت معاهد واضعي الخرائط خريطةً للإمبراطورية في حجم الإمبراطورية ذاتها بحيث تتطابق بدقة و إياها . و لكون الأجيال التالية كانت أقل تعاطيا لدراسة وضع الخرائطً فقد رأتْ بأن هذه الخريطةَ الممددةَ غير ذات جدوى فقدَّمتها ، ليس دونما شراسةٍ ، طعاماً سائغاً

لقساوات الشمس و فضول الشتاءات. و لا تزال في صحاري الغرب خرائب هذه الخريطة ممزقةً قد سكنتها الحيوانات و آوى إليها المتسولون؛ و لم يعد بالبلاد كلها بقيةٌ أُخرى من المذاهب الجغرافية.

الجحيم (1)

منذ غروب النهار و إلى غاية غروب الليل يرى فهدٌ، في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر، ألواحاً من خشب، و قضباناً عمودية من حديد، و رجالاً و نساءً يتغيرون، و حائطاً و ربما مصرف مياه صغيراً به أوراق جافة. لم يكن يعلم، و ما كان باستطاعته أن يعلم، أنه يحن إلى الحب و القساوة و اللذة الساخنة في الافتراس و الريح المشبعة برائحة أَيِّلٍ. غير أن شيئاً فيه يختنق ويتمرد فحدثه اللّه في رؤيا منام: <<إنك تعيش و ستهلك في هذا السجن حتى يراك، عدداً معيناً من المرات، رجلٌ

أعرفُه فلا ينساك و يضع صورتك و رمزك في قصيدة لها مكانها المحدد في حبكة الكون. تعاني الأسر، لكنك ستكون قد منحت القصيدة كلمتها». أضاء اللَّه، في المنام، فظاظة الحيوان فأدرك العلل و الأسباب و تقبل ذلك المصير. بيد أنه عندما استيقظ لم يكن في دخيلته غير استسلامٍ غامض، و جهالةٍ باسلة، لأن آلة العالم أعقد بكثير من بساطة وحش.

سنوات بعد ذلك، كان دَانْتِي يُحتضر في رَافِينَهْ وحيداً و غيرَ مُبرَّر مثل أي رجل آخر. و في رؤيا منامٍ أطلعه اللَّه على الهدف الخفي من حياته و عمله، فعلم مندهشاً في نهاية المطاف من كان و ماذا كان و بارك مراراته. يُروى في الأثر أنه، عندما استيقظ، شعر بأنه استلم شيئاً غير متناه ثم أضاعه، شيئاً لم يكن بإمكانه استرجاعه، و لا حتى إلقاء نظرة عجلى عليه، لأن آلة العالم أكثر تعقيدا من بساطة الناس.

(1) العنوان الأصلي لهذا النص هو Inferno,I,32

مسألة

لنتخيل أنه عُثِرَ في طليطلة على ورقة بها نص عربي اعترفَ المختصُّون في الكتاباتَ القديمة بأنه كُتب بيد و خطّ السيد أحمد بن الغالي الذي استمدَّ منه ثيرفانتيس ضون كيخوطي. نقرأ في النصِّ أنَّ البطل (الذي كان، كما هو مشهور، يقطع طرقات إسبانيا مسلحاً بالسيف و الرمح، و يتحدى أياً كان لأي سبب) قد اكتشف، بعد إحدى معاركه العديدة، أنه أجهز على رجل. عند هذا الحد يتوقَّف المقطع؛ و المسألة هي أن علينا أن نتنبأَ أو نُخَمن كيف كان رد فعل ضون كيخوطي.

هناك، حسب ما أعلم، ثلاثُ إجابات محتملةٌ. أولاها من صنف سلبي: إذ لا يحدث أمرٌ يُذْكَر لأن الموتَ، في عالم ضون كيخوطي المهلوس، ليس أقلَّ ابتذالاً من السحر، و قتل رجلٍ ما كان له أن يُربك من كان يقاتل، أو يظن أنه يقاتل، التنانينَ و السحرةَ. الإجابة الثانية مؤثرة: فضون كيخوطي لم يتمكن قط من نسيان أنه مجردُ انعكاس لألُونْسُو كيخَانُو، قارئ الحكايات الخرافية؛ إن رؤيته الموتَ، و إدراكَهُ أنَّ حلماً قد عرضه لارتكاب خطيئة قَابيل، يوقظانه من جنونه الاتفاقي، ربما إلى الأبد. ولعل الإجابةَ الثالثة هي أكثرُ الإجابات احتمالاً: فعندما يموتُ الرجل، لا يستطيع ضون كيخوطي القبول بأن الفعلَ الشنيع نتيجة هذيان؛ ذلك أن واقعية المعلول تجعله يفترض وجود طرف ثان هو واقعية العلة فلا يبرحُ ضون كيخوطي جنونه على الإطلاق.

يبقى تخمينٌ آخر لا يمتُّ بصلة إلى المدار الإسباني و لا حتى المدار الغربي، و يتطلب مجالاً أكثر قدَماً و أشدَّ تعقيداً و أَبلغ إرهاقاً. فإزاء جثة العدوِّ، يحدسُ ضون كيخوطي - الذي يغدو حالياً أحدَ ملوك الهندوستان - بأن القتلَ و الإنجابَ عملان إلهيان أو سحريان يتعاليان على نحو بيِّن فوق الشرط البشري، فيدرك بأن الميتَ مجرد وَهْم مثلما هي أوهامٌ ذلك السيفُ المدمَى الذي يُثْقِلُ قبضتَهُ، و هو عينُه، و كلُّ ما مضى من حياته، و الآلهةُ الشاسعةُ، و الكونُ.

وردة صفراء

لـم يمت جيَامْبَاتيستَا مَارينُو، الرجل الذائع الصيت الذي أجمعتْ أفواهُ الشهرة (ونحن نستعمل هنا مجازاً محبباً إلى نفسه) على إعلانه هُوميرُوسْ الجديد أو دَانْتي الجديد - لـم يمتْ في تلك الأمسية و لا في غيرها؛ بيد أن الحدث الثابت و الصامت الذي وقع حينئذ كان في الحقيقة آخر حدث في حياته. فبعد أن أغدقتْ له العطاءَ السنونُ و المجدُ، احتُضر الرجل في سرير إسباني واسع، منقوش الأعمدة بالزخارف. لن يُكلِّفنا شيءٌ أن نتخيَّل، على بعد خطوات منه، شرفةً هادئةً تولي وجهها

شطر الغروب، و تحت الشرفة مرمراً و غاراً و حديقةً تضاعفُ أدراجَها في صهريج مربع. وضعت امرأة في كأس وردةً صفراءَ؛ فتمتم الرجلُ البيتين اللذين لا مفرمنهما، و اللذين كانا، إذا شئنا أن نتحدث بصدق، قد أضجراه قليلاً:

أرجوانَ الحديقة، بذخَ المروج
بُرعَمَ الربيع، و مقلة أبريل...

إذ ذاك انكشفَ المستور. إذ رأى مَارينُو الوردةَ على نحو ما تمكنَ آدمُ من رؤيتها في الفردوس، فشعر بأنها كانت في خلودها و ليس في كلماته و أننا يمكن أن نَذْكُر أو نُلَمِّحَ لكن لا نستطيع التعبير، و أن المجلدات السامقةَ و الشامخةَ، التي تشكلُ في إحدى زوايا الحجرة عتمةً من ذهب، لم تكن (مثلما حَلِمَ غروره بذلك) مرآةً للعالم، و إنما شيئاً آخر ملحقاً به.

أدرك هذا الإلهامَ مارينُو في عشية موته، و لعل هُومِيرُوسْ و دَانْتي قد أدركاه أيضاً.

مفارقة ثيرفانتيس و الكيخوطي

عندما ألمتْ به السأمةُ من أرض إسبانيا، بحث جنديٌّ عجوز من جنود الملك عن سلواه في جغرافيات أَرْيُوسْطُو الشاسعة، و في وادي القمر حيث الزمنُ الذي تبذره الأحلام، و كذا في وَثَنٍ ذهبيَ للنبي محمد كان مُونْطَالْبَانْ قد اختلسه. هكذا تخيل، في سخريةٍ وديعة من ذاته، رجلاً ساذجاً أربكته قراءة الأعاجيب، فخرج يَنْشُدُ المفاخر و العزائم في مكانين مبتذلين هما طُوبُوسُو و مُونْطِيلْ.

و حينما هزمه الواقع، ودحرته إسبانيا، قضى ضونْ كيخُوطي نحبه

في القرية التي كان بها مسقط رأسه حوالي سنة 1614 . و لم يعش مِيكِيلْ دي ثير فانتيس بعده إلا أمداً قصيراً.

لقد كانت هذه الحبكة، بالنسبة للرجلين: الحالم و المحلوم به، تقابلاً بين عالمين: عالم كُتُب الفروسية اللاواقعي، و العالم اليومي و العادي للقرن السابع عشر. لم يخامرهما الشك في أن السنين ستؤدي إلى وهن الخلاف و تلاشيه، كما لم يرتابا في أن إقليمي لَاَمَانْشَا و مُونْطْييلْ، و هيأةَ الفارسِ النحيلِ، سوف لن تَقلَّ شاعريةً، في المستقبل، عن رحلات سندباد، و لا عن جغرافيات أَرْيوسْطُو الشاسعة.

ففي مبتدإ الأدب هناك الأسطورة، و كذلك في منتهاه.

مَثَلُ القصر

في ذلك اليوم، عرض الإمبراطورُ الأصفرُ على الشاعر قصرَه. كانا يُخلِّفان وراءَهما، في استعراض طويل، السقيفات الغربيةَ الأولى التي تنحدر، مثل دَرْجَات مدرَّج يكاد يكون متعذر الإحاطة، صوبَ فردوس أو بستان تُشخِّص المتاهةَ على نحو مسبق مراياهُ المعدنيةُ و سياجاتُه المشبكةٌ من نباتِ العرعر. ضاعا بعذوبة فيها، فكانا، بادئ الأمر، كما لو استمرءا لعبةً، ثم خامرهما بعض القلق بعد ذلك لأن ممرات المتاهة كانت تعتل بانحناءة بالغة الرخاوة و إن كانت متواصلة و تشكل خفيةً مجموعة

دوائر . عند منتصف الليل ، مكنتهما ملاحظة الكواكب و تقديم سلحفاة قرباناً مناسباً من أن ينعتقا من تلك المنطقة التي بدت لهما فاتنة ، لكن ليس من الشعور ، الذي رافقهما إلى النهاية ، بأنهما تائهان . عبرا فيما بعد قاعات انتظار ، و أبهاء ، و مكتبات ، و غرفة سداسية الزوايا بها ساعة مائية ، و ذات صباح لمحا من فوق صومعة رجلاً قُدَّ من حجر ، ثم فقداه بعد ذلك إلى الأبد . قطعا العديد من الأنهار اللامعة في زوارق من صندل ، أو قطعا نفس النهر عديد المرات . يمر الموكبُ الإمبراطوريُ فيسجدَ الناسُ ، لكنهما يصلان ذات يوم إلى جزيرة لم يسجد فيها ساكن لكونه لم ير ابن السماء مطلقاً ، فكان على الجلاد أن يضرب عنقَه . رأت عيناهما بلا مبالاة شعوراً كالحة و رقصات سوداء وأقنعةً معقدةً من ذهب ؛ فكان الواقعي يختلط بالحلم أو كان الواقعي ، بعبارة أدق ، مظهراً من مظاهر الحلم . كان يبدو من المستحيل أن تكون الأرض شيئاً آخر غير حدائق ، و مياه ، و عمائر ، و أشكال بهاء . في كل مائة خطوة تخترق الفضاء صومعةٌ ، و لون الصوامع ، بالنسبة للبصر ، عين اللون ، بيد أن أولاهن جميعاً كانت صفراء ، و الأخيرةُ قرمزيةً : فتدرُّجُ الألوانِ بالغُ اللُّطف و السلسلةُ بالغة الامتداد .

عند قاعدة الصومعة ما قبل الأخيرة ، ألقى الشاعر (الذي كان يبدو غير مكترث للمشاهد التي كانت أعجوبة الجميع) إنشاءه الوجيز الذي نَقْرِنُهُ اليوم إلى اسمه على نحو وثيق لا تنفصم عراه ، و الذي أمدَّه ، كما يكرر أكثر المؤرخين أناقةً ، بالخلود و الموت . لقد ضاع النصُّ ؛ فهناك من

يعتقد بأنه بيتٌ من الشعر، و يعتقد آخرون بأنه كلمةٌ واحدة. لكن المؤكدَ، المتعذِّر التصديق، هو أن القصيدة كانت تستوعب القصرَ الهائل كاملاً و مدققاً، بكل آنية خزف شهيرة و كل رسم في كل آنية خزف و العتمات و أضواء الغروب و كل لحظة شقية أو سعيدة من حياة السلالات المجيدة - سلالات الفانين أو الآلهة أو التنانين التي سكنته منذ الماضي اللامتناهي. سكت الجميعُ، لكن الإمبراطور هتف: «لقد سلبتني القصر!» فحصد سيفُ الجلادِ الحديديُّ حياةَ الشاعر.

يروي آخرون هذه القصةَ على نحو مختلف. ففي العالم لا مجال لوجود شيئين متناظرين، لذا كان يكفي (كما قالوا لنا) أن يتلفظ الشاعر بالقصيدة حتى يتلاشى القصر كما لو أن المقطع الأخير منها محاه أو صعقه. من الواضح أن حكايات من ذلك القبيل لا تعدو أن تكون تخييلات أدبيةً: لقد كان الشاعر عبداً للإمبراطور و مات كذلك؛ ووقع إنشاؤه موقع النسيان لأنه كان جديراً بالنسيان. و مازالت ذريتُه تكدُّ باحثةً عن كلمة الكون - التي لن تعثر عليها.

غرفة التماثيل

كانت بمملكة الأندلسيين، في الأيام الغابرة، مدينةٌ سكنها ملوكهم و كان اسمها لبطيط أو سبتة أو جيّان. و كان بهذه المدينة حصنٌ منيع لم تكن بابه، ذاتُ المصراعين، لتستعمل لا للدخول و لا حتى للخروج و إنما لكي تظل موصدةً. و كلما قضى مَلِكٌ وورث آخر عرشَه السامق، أضاف هذا بيديه قفلاً جديداً لتلك البابَ إلى أن بلغ عدد الأقفال أربعة و عشرين، لكل ملك قفلٌ. حينئذ حدث أن استولى على السلطة رجل شرير لم يكن من نسل الملوك، و عوض إضافة قفل أراد أن تفتح له

الأقفال الأربعة و العشرون حتى ينظر إلى محتوى ذلك الحصن. توسل إليه الوزير و الأمراء ألاَّ يقترف ذلك الأمر، و أخفوا عنه حلقة المفاتيح الحديدية، و قالوا له بأن إضافة قفل واحد أسهل من اغتصاب أربعة و عشرين، بيد أنه كان يكرر بمكر عجيب: <<أريد معاينة محتوى هذا الحصن>>. إذ ذاك عرضوا عليه كل الثروات التي أمكن جمعها، من قطعان، و أوثان مسيحية، و ذهب و فضة، غير أنه لم يرعو فعالج فتح الباب بيده اليمنى (التي ستحترقُ إلى أبد الآبدين). كانت هنالك، بالداخل، هيآت لأعراب صيغت من معدن و خشب، قد امتطوا نوقَهم السريعة و جيادَهم، و عماماتُهم تتموج على ظهورهم، و سيوفُهم المحدبةُ عُلقت في الأحزمة، والسهم المستقيم عن أيمانهم. وكانت الهيآت كلها من طرود فكانت تلقي على الأرض ظلالا، وكان باستطاعة أعمى أن يتعرف عليها بواسطة اللمس فقط، ولم تكن حوافر الخيول الأمامية تحاذي الأرض، ولم تكن تسقط، فكأنها قد شبت. لقد أحدثت هذه الهيئات المتقنة الصنع، لدى الملك، هلعًا عظيماً. وأحدث أكْثَرَ من ذلك النظامُ والصمتُ البديعُ الذي تحافظ عليه، اذ كانت كلها تنظر الى نفس الوجهة، التي هي المغرب ، ولم يكن يُسمعُ صوتٌ ولا نفير.

ذلك ما كان بالغرفة الأولى من الحصن. وكانت بالثانية مائدة سليمان بن داوود- عليهما السلام- قد قدت من حجرة زُمرُّد، لونُها، كما يُعلم، أخضرُ، وميزاتها الخفية أصيلة ولا يمكن وصفها: فهي تهدئ العواصف، وتحافظ على عفة حاملها، وتفزع الزحار والأرواح الشريرة،

وتعين على كسب النزاعات، وتنجد في حالات النِّفاس أعظم النجدة. وعثروا في الغرفة الثالثة على كتابين: أحدهما أسود، وكان يعلِّم فضائل المعادن، والطلاسم، والأيام، وكذا كيفية تحضير السُّموم والسُّموم المضادة، والآخر ابيض، لكن أحدا لم يتمكن من فك رموز تعاليمه، رغم أن الكتابة كانت بينةً فيه. ووجدوا في الغرفة الرابعة خارطة للعالم، حيث الممالكُ، والمدنُ، والبحارُ، والحصونُ، والأخطارُ، وجميعُها يحمل اسمه الحقيقيَّ ورسمَه الدقيقَ.

ووجدوا في الغرفة الخامسة مرآةً في شكل دائري من صنع سليمان بن داوود- عليهما السلام- لا تقدر قيمتها بثمن لأنها صيغت من معادن مختلفة، فمن نظر في قمرها رأى وجوه آبائه وأبنائه منذ آدم أول الخلق الى من سيسمع صوت النفخ في الصّور. وكانت السادسة مليئة بالإكسير، بحيث يكفي النزر اليسير منه لتحويل ثلاث آلاف أوقية من فضة إلى ثلاث آلاف أوقية من ذهب. وبدت لهم الغرفة السابعة خالية، وكانت بالغة الطول الى درجة أن أكثر القوّاسين دُرْبَةً إذا صوب سهما من عند الباب لم يتمكن من إيصاله إلى منتهاها. ورأوا على الحائط الأخير نقشا به كتابةٌ رهيبة. فحصها الملك، وأدرك مغزاها، فإذا هي تقول ما معناه: «لو أن يدا فتحت باب هذا الحصن فإن مقاتلين من لحم ودم على صورة مقاتلي المعدن الموجودين في مدخله سيسيطرون على المملكة».

وقعت هذه الأمور عام 89 للهجرة. وقبل نهاية العام، استولى طارق على ذلك الحصن، وهزم ذاك الملك وباع نساءه وأولاده ودمر

أراضيه. هكذا شرع العرب في الانتشار بمملكةالأندلس، حيث أشجارُ التين والبساتينُ المسقيةُ التي لا يظمأ فيها أحد. أما ما جرى للكنوز، فقد غدا مشهورا أن طارق بن زيادٍ سلَّمها الى سيده الخليفة، الذي أخفاها في قلب هرم.

مرآة الحبر

يعرف التاريخ أن أشد حكام السودان قسوةً كان يعقوبَ العليل، الذي سلّم بلاده لظلم جباةِ الضرائبِ المصريين، ومات في إحدى غرف القصر في اليوم الرابع عشر من شهر برمخات سنة 1842 . يلمّح البعض الى أن كاتبَ الرقى عبد الرحمان المصمودي أجهزَ عليه بخَنْجَر أو دسَّ له السم، بيد أن الموتَ الطبيعيَّ هو ما يبدو مُحتملا- إذ كان الرجلُ يعرف بالعليل. ومع ذلك فقد تحدث النقيب ريتشارد فرانسيس بورتون الى كاتب الرقى المذكور سنة 1853 و حكى بأنه روى له ما أنقله هنا :

«حقيقة عانيت الأسر في قصر يعقوب العليل، بسبب المؤامرة التي دبرها أخي إبراهيم، والنجدة الخادعة الباطلة التي قدَّمها زعماء زنوج كردفان، الذي وشوا به. مات أخي ضربا بالسيف، على جلد دم العدالة، بيد أني ارتميتُ عند قدمي العليل البغيضتين وقلت له بأني كاتبُ رقى وأنه لو أبقاني على قيد الحياة لأريته أشكالا وأطيافًا أشد روعة من تلك التي تصدرُ عن فانوسِ الخيالِ السحري. طالبني ببرهان في الحين فالتمستُ قلماً من قصبِ، ومقصا، وورقة كبيرة من ورق البندقية، وقَرْنَ مداد، ومجمرة وبذورٍ كزبرة، وأوقية من لبان الجاوي. قطَّعت الورقة إلىً ستة سيور مستطيلة، فكتبت طلاسم وأدعيةً في السيور الخمسة الأولى، وكتبت في السير الباقي هذه الكلمات التي وردت في القرآن الكريم: «وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد». بعد ذلك رسمتُ مربعا سحريا في يمين يعقوب وطلبتُ منه أن يجوِّفها ثم صببت دائرة من الحبر في وسط المربع. سألته عما إذا كان يبصر رسمه في الدائرة بوضوح فأجاب مُنعمًا. قلت له بألاَّ يرفع عينيه. أشعلت لبان الجاوي والكزبر ثم أحرقت الأدعية في المجمرة. طلبت منه أن يسمي الهيأة التي يريد رؤيتها ففكر ثم قال لي بأنه يريد رؤية فرس متوحشٍ من أجمل ما يرعى في المراعي المتاخمة للصحراء. نظر فرأى الحقل الأخضر الساجي ثم أبصر فرسا يدنو، خفيف الحركة مثل فهد، وعلى غُرته نجمةٌ بيضاء. طلب مني رؤية قطيع أفراس في كمال الفرسِ الأول فرأى في الأفق سحابة غبار مديدةً ثم القطيع. أدركتُ إذ ذاك أن حياتي أصبحت في

مأمن.

«بمجرد ما بزغ ضوء الفجر، دخل جنديان الى زنزانتي وقاداني الى غرفة العليل، حيث كان البخورُ والمجمرةُ والحبرُ في انتظاري. هكذا شرع يطالبني وأخذت أعرضُ عليه جميع أطياف العالم. لقد كان في يد هذا الرجل الفاني، المبغض اليَّ، كل ما رآه الرجال الأموات وكل ما يراه الأحياء: المدن، والمناخات، والممالك التي تنقسم الأرض إليها، والكنوز المخبأة في المركز، والسفن التي تعبُر البحر، وعدّةُ الحرب والموسيقى والتشريح، والنساءُ المليحات، والنجوم الثابتة والكواكب، والألوانُ التي يستعملها الكفار في رسم لوحاتهم الدنيئة، والمعادنُ والنباتات التي تنطوي على أسرار وفضائل، وملائكةُ الفضة الذين يقتاتُون من مدح الله وتسبيحه، وتوزيع الجوائز في المدارس، وتماثيل الطيور والملوك الموجودة في قلب الأهرامات، والظلُّ الذي يصدر عن الثور الذي يحمل الأرض وظلُّ السمكة التي أسفل الثور، وصحاري الإله الرحيم. رأى أمورا يعجز عنها الوصف، مثل الشوارع التي تضاء بالغاز ومثل الحوت الذي يلقى حتفه اذا سمع صراخ الإنسان. ذات مرة أمرني بأن أريه المدينة التي تدعى أوروبا فأريته الرئيسيَّ من شوارعها وأظن أنه في خضم نهر الرجال ذاك، وكلهم تزين بالسواد وبعضهم حمل منظارا، أبصر وجه المقنَّع للمرة الأولى.

«منذ ذلك الحين، تسربت تلك الصورة الى المرئيات، تارةً في زي سوداني، وتارة في بدلة موحدة، وفي جميع الأحوال كانت تتدلى على

الوجه قطعة ثوب . لم يكن يتخلفُ ، ولم نخمن من يكون . ومع ذلك فأطياف مرآة الحبر ، التي كانت موقوتةً وثابتة في البداية ، غدت الآن أكثر تعقيدا . لم تكن تتأخر في تنفيذ أوامري وكان المستبدُ يتتبعها بوضوح . من المؤكد أننا كلانا تعودنا على الإرهاق الذي يعقب ذلك ، وكانت الخاصيّة الفظيعة للمشاهد منبعا آخر للتعب فلم تكن غيرَ عقوبات ، وحبال ، وعمليات بَتْر ، ملذات للجلاد والقاسي .

«هكذا نصل الى فجرٍ اليومَ الرابع عشر من شهر برمخات . لقد رُسمت دائرة الحبر في الكف ، وألقي لبان الجاوي في المجمرة ، وأحرقت الأدعية . كنا بمفردنا . وأمرني العليل بأن أعرض عليه عقاباً عادلاً متعذر الاستئناف ، لأن قلبه كان ، في ذلك اليوم ، يتشهى رؤية موت . أريتُه الجنود بطبولهم ، وجلد عجل ممطوطاً ، والأشخاص الذين يسعدهم النظر ، والجلاد بيده سيف العدالة . تعجب عند رؤيته وقال لي : «إنه أبوقيرْ منفذُ حكم الاعدام في أخيك ، وخاتم مصيرك عندما يُوهبُ لي علم استدعاء هذه الهيأت دون معونتك» . طلب مني استقدام المحكوم عليه ، وعندما أحضروه بُهتَ ، إذ كان عين الرجل المتعذر الشرح ذي الثوب الأبيض . أمرني أن يُنْزَع قناعه قبل قتله فألقيت نفسي عند قدميه وقلت : «آه ياملك الزمان وجُماع العصر وجوهره . ليس هذا الوجه مثل بقية الوجوه ، فلا نعلم اسمه ولا اسم أبويه ولا اسم المدينة التي هي وطنه ، لذلك لا أجرؤ على مسه حتى لا أرتكب جريرةً يجب أن أحسب حسابها» . ضحك العليل ثم أقسم ، بحق السيف والقرآن ، أنه سيحتمل

تبعات الإثم، إن كان هنالك من إثم. عندئذ أمرت بأن يُنضى المتهم من ملابسه ويُربط الى جلد العجل المطوط وينزع قناعه. نفذت هذه الأوامر فتمكنت عينا يعقوب المرتعبتان من رؤية ذلك الوجه أخيرا- فكان وجْهَه هو. تلبَّسه الخوف والجنون، فأمسكتُ يمينه المرتعشة بيميني التي كانت ثابتة، وأمرته أن يواصل التحديق الى طقس موته. كان قد أصابه مسٌّ من المرآة، فلم يحاول حتى رفع عينيه أو بعثرة المداد. وعندما انهالَ السيفُ في المشهد على رأس الجاني، انتحب بصوتٍ لم يُثِرْ شفقتي ثم تدحرج على الأرض، ميتا.

«فسبحان الحي الذي لا يموت، من بيده مفاتيح الغفران اللا محدود والعقاب اللامتناهي».

السُّور والكتبُ

He whose long wall the wand 'ring tartar bounds.....

DUNCIAD,II, 76.

قرأت في أيام ماضية، أن الرجلَ الذي أمر ببناء سور الصين الذي يكاد لا ينتهي كان ذلك الإمبراطور الأول شيهْ هْوانگْ تي الذي أمر أيضا بإحراقِ كل الكتبِ السابقةِ على عهده. إن صدور العمليتين الشاسعتين- إقامة خمسمائة أو ستمائة فرسخ من حجر في مواجهة المتبربرين، وإبادة صارمة للتاريخ، أي الماضي- عن شخص واحد فتكونا، على نحو من

الانحاء، ميزتين له قد أرضاني وأقلقني في نفس الوقت وعلى نحو متعذر الشرح. إن استقصاء علل هذا الشعور هو غاية هذه الملاحظة.

من الناحية التاريخية، ليس هناك سرٌّ غامض وراء الإجراءين. فبما أنه كان معاصرا لحروب هانيبالْ، أخضع شيهْ هوانْگْ تي، ملك تْسينْ، الممالك الست لسلطانه، وقضى على النظام الإقطاعي. أقام السور لأن الأسوار كانت تحصينات، وأحرق الكتب لأن المعارضة كانت تعتمد عليها في الإعلاء من شأن الأباطرة القدماء. لقد كان إحراقُ الكتب وإقامةُ التحصينات مهمةً شائعةً من مهام الأمراء، والأمر الوحيد الشاذُّ في تصرف شيهْ هْوانگْ تي هو المدى الذي عمل فيه. ذلك ما لمح اليه بعض المختصين في الشئون الصينية، غير أني أشعرُ بأن الوقائع التي رويت هي أكثر من مغالاة أو من مبالغة مبتذلة المقاصد. إنه لأمرٌ عادي تسوير بستان أو حديقة، وليس كذلك تسوير إمبراطورية. كما أنه ليس من المبتذل الزعم بأن أكثر السلالات عراقةً يمكن أن تنبذ ذاكرة ماضيها، أسطوريا كان أم حقيقيا. لقد سلخ الصينيون من التاريخ ثلاثة آلاف سنة (وفي تلك السنون ظهر الإمبراطور الأصفر، وتشوانْگْ تزُو وكُونفُو شْيوسْ ولاَوتزُو) حينما أمر شيهْ هوَانْگْ تي بأن يُستهلَّ التاريخ به.

كان شيهْ هوَانْگْ تي قد أمر بنفي أمه بسبب دعارتها، ولم ير المحافظون في عدالته المتشددة شيئا غير القساوة. لعل شيهْ هوَانْگْ تي أراد إبادة الكتب الشرعية لأنها تدينه، أو لعل شيهْ هوانك تي أراد الضرب صفحا عن الماضي بأسره بغية محو ذكرى واحدة: فضيحة أمه (وهو، في

هذا، لا يختلف عن ملك، في يهودا، أمر بذبح جميع الأطفال بغية ذبح طفل واحد). إن هذا التخمين جدير بالاهتمام، بيد أنه لا ينبئنا بشيء عن السور، وجه الاسطورة الآخر. وحسب رواية المؤرخين فإن شيه هوانگ تي حظر ذكر الموت، وجدَّ في طلب إكسير الخلود، واعتزل في قصر مجازي، مؤلف من عدد من الحجرات يعادلُ ما في السنة من أيام. وهذه الوقائع توحي بأنَّ السُّورَ في الحيِّز والنار في الزمان كانا حاجزين سحريين هدفهما إيقاف زحف الموت. لقد كتب باروخْ سپينوزا بأن كل الأشياء تنشُد البقاء في ذواتها، ولعل الإمبراطور اعتقد هو وسحرته بأن الخلود أمرٌ متأصل في الذات وأن الفساد لا يمكن أن يتسرب الى فلك مغلق. لعل الإمبراطور أراد إعادة خلق مبدإ الزمن فتسمى الأول ليكون الأولاً في الواقع، وتسمَّى هوانگ تي ليكون، على نحوما، هوانك تي الإمبراطور الخرافي الذي ابتدع الكتابةَ والبوصلة. لقد منح هذا الأخيرُ الأشياءَ أسماءها الحقيقيةَ ، حسب ما ورد في «كتاب الطقوس»، وبموازاة ذلك فَاخَر شيهْ هوانگ تي، في نقوش لا تزول، بأن كافة الأشياء، في عهده، كانت لها الأسماء المناسبة. حلَم بإقامة سلالة ملكية خالدة فأمر بأن يحمل ورثته ألقابَ الإمبراطور الثاني، والإمبراطور الثالث، والإمبراطور الرابع، وهكذا إلى ما لا نهاية... لقد تحدثت عن غرض سحري، ويجوز الافتراض كذلك بأن إقامة السور وإحراقَ الكتب لم يكونا فعلين مُتَحَايَنْين. فذلك (حسب النظام الذي تختار) يمكن أن يعطينا صورةً لملك بدَأ بالتدمير ثم استسلم للحفظ والصيانة أو صورةً

لملك خاب ظنه فدمَّر ما كان من قبل حمى. وكلا التخمينين مؤثر وفاجع، لكن كلاهما، فيما أعلم، يفتقر الى سند تاريخي. يروي هربرت ألن جيلز بأن الذين خبأوا الكتب عُلِّموا بحديدة حامية وحُكم عليهم ببناء السور الخارق الى يوم يهلكون. وهذا النبأ يدعم تأويلاً آخر أو يتقبله بتسامح. فلعل السور كان مجازا، ولعل شيه هوانگ تي حكم على الذين يقدسون الماضي بعمل يعادل الماضي في شساعته، كما يعادله في بذاءته ولا جدواه. لعل السُور كان تحديا، ففكر شيه هوانك تي: «إن القوم يحبون الماضي، ولستُ أستطيع، ولا جلاديَّ، دفعا لذلك الحب، لكن سيأتي ذات يوم رجلٌ يشعر بمثل شعوري، فيحطم سوري مثلما حطمت الكتب، ويمحو ذكراي فيصير ظلي ومرآتي وهو لا يدري». لعل شيه هوانك تي سور الإمبراطورية لعلمه بأنها كانت هشةً ودمرَّ الكتب لإدراكه أنها كانت كتبا مقدسةً أي تعلم ما يعلمه الكون بأسره، أو ضمير كل إنسان. ولعل إحراق المكتبات وبناء السُّور عملان ينفي أحدهما الآخر على نحو سري.

إن السور العنيد الذي يلقي في هذه اللحظة، وفي كل لحظة، منظومة ظلاله على أراض لن أراها هو ظل ذلك القيصر الذي أمر أن تُحرقَ ماضيها أكثر الأمم وقارا؛ وإنه لمن المحتمل أن تؤثر فينا الفكرة في ذاتها بمعزل عن التخمينات التي توحي بها (ويجوز أن تكون فضيلتها قائمة في التعارض بين البناء والتدمير على نطاق هائل). فإذا عممنا انطلاقاً من الحالة السالفة، أمكننا أن نستنتج بأن كافة الأشياء تتوفر على

فضيلة في ذواتها وليس في أي «مضمون» تخميني. إن هذا يوافق أطروحة بينيديتو كروتشي، ولقد أثبت پاطر من قبل، في 1877، بأن جميع الفنون تطمح الى وضعية الموسيقى، التي ليست غيرُ محضِ شكل. فالموسيقى وحالات السعادة والأساطير والوجوه التي أعمل الدهر إزميله فيها وبعض مشاهد الغروب وبعض الأماكن- كل ذلك يحاول أن يخبرنا بأمر، او لعله أخبر بأمر كان علينا الا نفقده، أو لعله يستعد لإخبارنا بأمر: ولعل هذا الكشف الوشيك، الذي لا يقع، أن يكون الفعل الجمالي.

المرآة والقناع

لدى انتهاء معركة كْلُونْطَارْفْ، التي ذلَّ فيها النُّرويجيون، تحدث الملك السامق الى الشاعر وقال له:

-إن المآثرات الأكثر نصاعة لتفقد بريقها ما لم تُسكَّ في كلمات. أريد أن تغني انتصاري في مديح. سأكون إينيَاكَ، وتكون فِرْجيلِي. فهل تعتقد أنك أهل لإنجاز هذه المهمة التي ستجعلنا، كلينا، في الخالدين؟

قال الشاعر:

-أجل، أيها الملك. إنني أنا أُويَانْ: أمضيت اثني عشر شتاءً في

دراسة فن العروض. أحفظ عن ظهر قلب الستين وثلاثمائة خرافة التي يقوم عليها صرح الشعر الحقيقي. ضفرت أوتار معزفي بأزليات أولْسْترومُونْسْتِرْ. وتسمح لي القواعد باستعمال أكثر كلمات اللغة عتاقة وأشد المجازات دقة. أمسك بزمام الكتابة السرية التي تنافح عن فننا ضد فضول الدهماء. يمكن أن أمدح الغراميات، وسرقات المواشي، والابحارات، والحروب. أعرف الأنساب الأسطورية لكل الأسر المالكة في إيرلندا. أحيط علما بفضائل الأعشاب، والتنجيم القضائي، والرياضيات، والقانون الشرعي. هزمتُ أعدائي في مباريات عمومية. تدربتُ على الهجاء الذي يسبب أمراض البشرة، بما في ذلك الجذام. أتقن استعمال السيف، كما برهنْتُ على ذلك في المعركة. لكنني أجهل أمراً واحداً: وهو شكرك على الهبة التي تمنحني إياها.

قال له الملك بارتياح، وكان ممن يضجر بسهولة من الخطب الطويلة التي يلقيها الآخرون:

-أعرف جيدا هذه الأمور. لقد أخبروني منذ وهلة بأن العندليب قد غرد في إنكلترا. فعندما تمر الأمطار والثلوج، وحينما يعود العندليب من أراضيه الجنوبية، عليك أن تلقي مديحك بين يدي أمام الحاشية وأمام محفل الشعراء. أعطيك مهلة حول كامل، وسيكون عليك أن تصقل كل حرف وكل كلمة. أما المكافأة فلَن تكون، كما تعلم، دون جدارة عادتي الملكية ولا سهراتك الملهمة.

قال الشاعر، الذي كان أيضا أحد أفراد الحاشية:

-أيها الملك . إن أفضل مكافأة هي التملي بطلعتك .

عندما انصرم الأجل ، وكان فترة أوبئة وفتن ، قدم الشاعر قصيدة المديح . تلاها باطمئنان بطيء ، دون أن يعير المخطوط التفاتة واحدة ، وكان الملك يهز رأسه موافقا ، فكان الجميع يصنع صنيعه ، حتى أولئك الذين تزاحموا لدى الباب ولم يكونوا ليسمعوا شيئا . في الختام نطق الملك :

-حظي عملك بالقبول . إنه نصرٌ آخر . لقد منحت كل صوت مدلوله الأصيل وكل موصوف وصفه الذي حباه به أوائل الشعراء . ليس في المديح كلّه صورة واحدة لم يستعملها القدماء : فالحرب هي لباس الرجال الجميل ، والدم هو ماء السيف . للبحر إله ، وإن السحب لتتنبأ بالمستقبل . لقد عالجت القافية بحذق ، وكذا الجناس الصوتي ، والسجع ، والكميات ، وزخارف علم البديع ، والتناوب الماهر بين الأوزان . فلو أن أدبَ إيرلندا ضاع كله -omen absit- لأمكن إعادة بنائه دون هدر بواسطة مديحك الكلاسيكي . سينسخه ثلاثون ناسخا مرّتين .

حدث صمت ، ثم واصل الملك :

-كل ما صنعت حسن ، ومع ذلك لم تقع واقعة . ففي المعاصم لا يجري الدم بأسرع مما يجري ، والأيدي لم تندفع طلبا للأقواس . لم يشحب لون أحد ، ولاند عن امرئ صريخ المعركة ، ولا أحد واجه الفيكينگ بصدره . بعد مهلة سنة ، سنصفق لمديح آخر منك أيها الشاعر . وللتعبير عن رضانا ، خذ هذه المرآة التي صنعت من فضة .

قال الشاعر :

-أشكركم، وأفهم ما تقصدون .

عادت نجوم السماء لاختراق طريقها اللاحب . غنى العندليب مرة أخرى في الأدغال الساكسونية فعاد الشاعر بمخطوطه، وكان أقل طولا من سابقه . لم يكن يستظهر النص، بل قرأه بقلق ملحوظ، متجاهلاً مقاطع معينة كما لو كان هو ذاته لا يدرك مغزاها أو لم يكن يريد لحرمتها تدنيسا . كانت الصفحة غريبة : إذ لم تكن وصفًا للمعركة، بل كانت المعركة . ففي فوضاها الحربية يضطرب الربُ الذي هو الثلاثة وهو الواحد، إلى جانب معبودات إيرلندا الوثنية، فضلا عمن سيحاربون، مئات السنين بعد ذلك، في مستهل ال «إيدَّة الكبرى» . ولم يكن الشكل بأقل غرابة من ذلك : فالاسم المفرد يمكن أن يتحكم في فعل مسند إلى الجمع، والحروف كانت مخالفةً للقواعد العامة، والفظاظة تناوبُ العذوبة، والمجازات متعسِّفة أو لعلها بدت كذلك .

بادل الملكُ رجالَ الأدبِ المتحلقين من حوله بضع كلمات ثم تحدث على النحو التالي :

-لقد أمكنني أن أؤكِّد، بصدد مديحك الأول، أنه كان تلخيصًا ناجحًا لكل ما أنشد في إيرلندا . أما مديحك هذا فيفوقُ كل ما سبق، كما يمحوه أيضا . إنه يُعطل، ويُدهش، ويزيل البريق . لذا فليس يستحقه الجهلة، وإنما العارفون ذوو الأعداد القليلة . سيكون صندوق من عاج حارسًا للنسخة اليتيمة . وإننا لنرجو من القلم الذي صاغ أثرًا بهذه النباهة

البالغة أثراً يبزُّه سمواً.

ثم أضاف بابتسامة:

-إننا شخصياتٌ في خرافة، ومن الصائب التذكيرُ بأن الرقم ثلاثة سباقٌ في الخرافات.

تجرأ الشاعر على النبس:

-هباتُ الساحر الثلاث، والتثليثات، و«الثالوث» المتعذر على الجدال.

فواصل الملك:

-وبرهاناً على اغتباطنا خذ هذا القناع المصنوع من ذهب.

قال الشاعر:

-لكم جزيل الشكر، ولقد فهمت ما تقصدون.

عادت الذكرى السنوية، ولاحظ حراس القصر أن الشاعر لم يُحضر مخطوطًا. نظر الملك إليه ليس دونما ذهول، إذ كان يبدو شخصاً آخر. أمرٌ ما، ليس الزمن بالضرورة، خدَّد ملامحه وبدَّل أحوالها فبدت العينان وكأنهما ترنوان إلى بعد سحيق أو كأنهما عميتا. التمس الشاعر أن يتحدث إلى الملك ببضع كلمات، فأخلى الحراسُ القاعة.

استفسر الملك:

-ألم تكتب القصيدة؟

فقال الشاعر بحزن:

-بلى. وليت السيد المسيح منعني من إنجازها.

-هل يمكنك تلاوتها؟

- لست أجرؤ.

فأعلن الملك:

-أهبك الشجاعة التي أنت بحاجة إليها.

قرأ الشاعر القصيدة. كانت سطراً واحداً.

ودون أن يتحمسا لقراءتها جهرا، فقد نبسها الشاعر وملكُه كما لو أنَّ الأمر ابتهالٌ سري أو شتيمة. ولم يكن الملك أقل اندهاشاً من صاحبه ولا أقل انكساراً. نظر كلاهما إلى الآخر، ووجهاهما شاحبان.

قال الملك:

-في سني شبابي أبحرت جهة المغيب، فرأيت بإحدى الجزر كلاباً سلوقيةً من فضة تفترس خنازير بريةً من ذهب. وفي جزيرة أُخرى طعمنا من شذى البرتقال المسحور. وأبصرتُ في جزيرة غيرهما أسواراً من نار. وفي أكثر تلك الجزر بُعداً كان نهرٌ مقبّبٌ ومعلق يخترق السماء، تسبح في مياهه أسماك وتُبحر سفن. إن هذه أعاجيبُ، لكنها لا تقارن بقصيدتك التي لا شك أنها تحتويها جميعاً. فأي سحر أوحى لك بها؟

قال الشاعر:

-تذكرت عند السَّحر أنني قلت كلمات لم أُدرك مغزاها في البداية. وهذه الكلمات كانت قصيدة. شعرت بأنني اقترفت زلةً، ربما تلك التي لا يغفرها «الفكر».

غمغم الملك:

-الزلةُ التي نتقاسمها معًا، وهي أننا أدركنا«الجمال»، هذه الهبة المحظورة على الفانين. آن لنا أن نُكفِّر عن ذلك. لقد منحتك من قبل مرآةً وقناعًا من ذهب، و ها هي الهديةُ الثالثةُ التي ستكون الأخيرة.

ثم وضع في يمين الشاعر خنجرا.

نعلم عن هذا أنه انتحر لدى خروجه من القصر، أما الملك فقد غدا متسولاً يُطوِّف بطرقات إيرلندا، التي كانت مملكتَه، وأنه لم يُعِدْ تلاوة القصيدة البتَّة.

إيمّا ثُونْث

في الرابع عشر من يناير 1922 ، لدى عودتها من مصنع المنسوجات «طربوك ولوفينتال» ، وجدت إيمَّا ثُونْث في قاع الدهليز رسالةً مختومةً بالبرازيل علمت من خلالها أن أباها قد قضى نحبه . خدعها ، لأول وهلة ، الطابع البريدي والغلاف ، ثم أقلقها الخط المجهول فيما بعد . تسعة أو عشرة أسطر ملطخة أرادت أن تُترع الورقة ، وقرأت إيمَّا بأن السيد مَايِرْ قد ابتلع جرعة فيرونال قوية المفعول وأنه توفي في اليوم الثالث من الشهر الجاري بمستشفى بَاكِي . وقَّع الخبر رفيق والدها في البنسيون ،

وهـو رجـل يـدعـي فِيين أو فَاين، أصلـه مـن ريُّو گـرانْدِي، لـم يكـن باستطاعته أن يعلم أنه يتوجه بالخطاب إلى ابنة الفقيد.

تركت إيمًا الورقة تسقط من بين يديها. وكان انطباعها الأول شعور بوعكة في البطن والركبتين، ثم شعور بخطأ أعمى، باللاواقع، والبرد، والخوف، ثم أرادت أن تكون في اليوم التالي. وفهمتْ، بعد ذلك، أن هذه الإرادة لم تكن لتجدي لأن موت أبيها كان الحدث الوحيد الذي وقع في العالم وأنه سوف يظل يقع الى ما لا نهاية. التقطت الورقة وانصرفت الى حجرتها حيث أخفتها خلسةً داخل درج، كما لو كانت على نحو ما تعرف مسبقًا الوقائع اللاحقة. لقد بدأت تلمحها منذ الآن، فصارت مقدَّما من ستكون.

في العتمة المتنامية بكت إيمًا، الى نهاية ذلك اليوم، انتحار مَانْويلْ مَايرْ الذي كان يُدعى، في الأيام السعيدة الغابرة، إيمَانْويلْ ثُونْتْ. تذكرت اصطيافات في مزرعة بالقرب من گْوَاليگْوَايْ، وتذكرت (أو حاولت أن تفعل) والدتها، وتذكرت منزل لأنُوسْ الصغير الذي انتزع منهم، وتذكرت المعينات الصفراء في زجاج نافذة، وتذكرت سيارة السجن، والخزي، وتذكرت الرسائل المجهولة الأسم مع المرتب والتي كانت تتحدث عن «اختلاس صاحب الصندوق»، كما تذكرت (وهو ما لن تنساه أبدا) أن أباها أقسم، في الليلة الأخيرة، أن المختلس كان لُوفِينتَال. لوفينتال، هارون لوفينتال الذي كان من قبل وكيلا للشركة، فأصبح الآن أحد مالكيها. احتفظت إيمًا بالسر منذ سنة 1916، ولم

تفشه لأحد بما في ذلك صديقتها المفضلة إلْسَا أورْسْتَاين. ربما كانت بذلك تتلافى دنس عدم التصديق، وربما كانت تعتقد أن السر كان آصرةً بينها وبين الغائب. لم يكن لوڤينتال يدري أنها تدري، وكانت إيما ثُونْث تستمد من هذه الواقعة الضئيلة شعورا بالسلطة.

لم تنم تلك الليلة، وحينما شخص النور مربع النافذة كان مخططها قد اكتمل. حاولت أن يكون هذا اليوم، الذي بدا لها غير متناه، أشبه بسائر الأيام. كانت بالمصنع إشاعات عن إضراب، وأعلنت إيما، مثلما فعلت دائماً، أنها ضد كل عنف. في السادسة، بعد انتهاء العمل، ذهبت صحبة إلْسَا إلى ناد نسوي به مكان لممارسة الرياضة وحوض صغير. سجلتا نفسيهما، وكان عليها أن تعيد اسمها ولقبها وتتهجاهما، كما كان عليها أن تغازل السخريات المبتذلة التي تعلّق على التنقيح. ناقشت هي وإلسَا وصغرى آل كرُونْفُوسْ السينما التي ستذهبن إليها مساء الأحد، ثم جرى الحديث عن الخطّاب فلم يتوقع أحد أن تتحدث إيمّا في ذلك. إنها ستبلغ في أبريل القادم التاسعة عشرة من عمرها، بيد أن الرجال كانوا يبثون فيها، مع ذلك، ذعراً يكاد يكون مرضياً... وعندما عادت، أعدت حساءالتَاپْيوكَا وبعض الخضر، فطعمت باكراً ثم اضطجعت وأرغمت نفسها على النوم. هكذا، في عمل وابتذال، مضت جمعة الخامس عشر، أمس.

يوم السبت، ايقظها فراغ الصبر. ليس القلق وإنما فراغ الصبر والارتياح الفذ بأنها أصبحت، أخيرا، في ذلك اليوم المنشود. ليس عليها

الآن أن تختط وأن تتخيل، فخلال بضع ساعات ستبلغ بساطة الوقائع. قرأت في جريدة «La Prensa» أن السفينة Nordstjarnan، المسجلة في مَالْمُو، سوف تبحر هذه الليلة من الرصيف رقم 3، ثم تلفنت إلى لوڤينتال مُلمِّحَة أنها تريد إبلاغه، دون علم زميلاتها، أمراً يتعلق بالإضراب، ووعدت أن تمر بالمكتب عند حلول الظلام. كان صوتها يرتعش، والارتعاشة تناسب صوت واشية. لم يقع ذلك الصباح أمر آخر يستحق الذكر: اشتغلت إيمَّا حتى الثانية عشرة، واتفقت مع إيلْسَا وپيرلاَ كْرُونْفُوسْ على تفاصيل جولة الأحد. رقدت بعد الغداء فاسترجعت، مغمضة العينين، المخطط الذي حبكته. وفكرت أن المرحلة الأخيرة ستكون أقل رعباً من الأولى وأنها ستمدها، لا محالة، بطعم النصر والعدالة. فجأة نهضت مرتعبة وجرت إلى درج الصوان. فتحته، وتحت صورة ميلْتُونْ سيلْسْ وجدت رسالة فاينْ حيث تركتها الليلة الماضية. ليس من المحتمل أن يكون قد رآها أحد، شرعت في قراءتها ثم مزقتها.

سيكون من الصعب، وربما من غير المناسب، سرد وقائع ذلك المساءبنوع من الواقعية. فاللاواقعية هي خاصية من خواص الجهنمي، خاصية يبدو أنها تلطف أهواله أو تزيد من حدتها أحياناً. كيف يمكن جعل حدث ما محتملاً مع أن منفذه يكاد لا يؤمن به، وكيف يمكن استرجاع تلك الفوضى الوجيزة التي ترفضها ذاكرة إيمَّا ثُونْتْ وتربكها؟ كانت إيمَّا تقطن في حي أَلْماگْرُو بشارع لينْيِيرْسْ، ويقينُنا أنها ذهبت ذلك المساء الى الميناء. لعلها شاهدت نفسها، وهي تعبر ممشى خُولْيُو السيء

السمعة، مضاعفةً في المرايا تشهرها الأضواء وتجردها من ملابسها عيون الجائعين. بيد أنه من المعقول أكثر الافتراض بأنها تاهت، دون أن يلاحظها أحد، خلال سوق غير آبه .... .

دخلت حانتين أو ثلاثا، وشاهدت روتين نساء أخريات وحيلهن، وفي نهاية المطاف عثرت على رجال من سفينة Nordstjarnan. خشيت أن يبث فيها أكثرهم شباباً حنواً من نوع ما فاختارت آخر، لعله كان أشد قصرا منها وفظّاً، وذلك حتى لا يصير صفاء الرعب خفيف الوقع. قادها الرجل الى باب ثم الى دهليز ضاج ثم الى سلالم متعرجة ثم إلى بهو (به نافذة تتوفر على معينات زجاجية شبيهة بتلك التي كانت في المنزل الموجود بلانُوسْ) ثم الى ممر ثم إلى باب انْغَلَق. إن الوقائع الخطيرة تحدث خارج الزمن، إما لان الماضي المباشر يتجلى فيها كما لو كان مبتوراً عمّا يعقبه، وإما لأن الأجزاء التي تؤلفها لا تبدو متتالية.

هل فكرت إيمَّا ثونْثْ في كل ذلك الزمن الموجود خارج الزمن، وفي تلك الفوضى المحيِّرة للأحاسيس المنفرطة والفظيعة، هل فكرت مرةً واحدة في الميت الذي يحفز تضحيتها؟ في اعتقادي أنها فكرت مرة واحدة، وأنها في تلك اللحظة خاطرت بتعهدها اليائس. فكرت (ولم يكن بإمكانها ألا تفعل) في أن أباها قد فعل في والدتها ما يُفعل فيها الآن. فكرت في ذلك باستغراب واهن فالتجأت فورا الى الغثيان. لم يكن الرجل، السويدي أو الفنلندي الأصل، يتحدث الإسبانية، كان أداة بالنسبة لإيمَّا مثلما كانت هي أداة بالنسبة له، غير أنها صَلُحت لاستمتاعه

وصَلُح هو لإحقاق العدالة.

عندما انفردت بنفسها لم تفتح إيمّا عينيها مباشرة. وكان على المائدة ذات المصباح الأوراقُ النقديةُ التي تركها الرجل، فانتصبت إيما ومزقتها مثلما مزقت الرسالة من قبل. إن تمزيق النقود كفر شأنه شأن رمي الخبز، لذا تابت إيما عن زلتها بعد اقترافها مباشرة. سلوكُ كِبْر، وفي ذلك اليوم... . وضاع الخوف في حزن جسدها، وفي التقزز. وكان التقزز والحزن يكبلانها، غير أن إيما نهضت ببطء وشرعت في ارتداء ملابسها. لم تعد بالحجرة ألوان حية إذ كان الغروب الأخير يحتدّ. وتمكنت إيما من الخروج دون أن يلاحظها أحد، وعند المنعطف صعدت الى حافلة لاكْرُوثي تتجه غربا. اختارت، حسب مخططها، المقعد الأكثر تقدُّماً حتى لا يُرى وجهها. ربما طمأنها أن تتأكَّد، في تفاهة نشاط الشوارع، أن ما حدث لم يصب الأشياء بعدواه. عبرت بأحياء متضائلة وثخينة، تبصرها فتنساها حينا، ثم ترجلت عند أحد مداخل ڤَارْنس. لقد غدا تعبها، بشكل متناقض، قوة لأنه يرغمها على التركيز في تفاصيل المغامرة ويحجب عنها العمق والغاية.

كان هارون لُوڤِينْتَالْ، بالنسبة للجميع، رجلاً حاداً، وكان، بالنسبة لأصفيائه القليلين، رجلاً بخيلاً. كان يقيم في أعالي المصنع، بمفرده. وبما أن الضاحية كانت خلاءً فقد كان يخشى اللصوص، لذا أُطلق في بهو المصنع كلبٌ ضخم، ولم يكن أحد ليجهل أن الرجل كان يضع في درج مكتبه مسدساً. لقد بكى بلياقة، خلال السنة المنصرمة، موت زوجته

غير المتوقع (كانت من عائلة كُوسْ، وكانت حملت إليه مهراً جيداً!) بيد أن المال كان هواه الحقيقي. وكان يدرك بحرج ذاتي أن قابليته للحصول على المال أقل من قابليته للمحافظة عليه. كان بالغ التدين، ويعتقد أن بينه وبين الله ميثاقاً سرياً يعفيه من التصرف الطيب مقابل صلوات وابتهالات، أصلعَ، بديناً، يرتدي الحداد، نظارتاه غائمتين، ولحيته شقراء، وكان ينتظر، منتصباً بالقرب من النافذة، البلاغ السري الذي ستدلي به العاملة ثُونْثْ.

أبصرها تدفع الحاجز الحديدي (الذي واربَه خصيصاً لذلك) وتعبر البهو المعتم. ثم أبصرها تقوم بانحراف صغير عندما نبح الكلب المقيَّد. وكانت شفتا إيمّا منهمكتان مثل شفتي من يتلو الدعوات بصوت خفيض، متعبتان وهما تكرران الجملة التي سيسمعها السيد لوفينتال قبل موته.

لم تقع الأمور على النحو الذي توقعته إيمّا ثونْث. فمنذ فجر اليوم السابق، تخيلت نفسها، مرات عديدة، وهي تصوب المسدس بثبات، مرغمةً الرجل البائس على الاعتراف بذنبه التعس، عارضةً الخدعة الجسورة التي تسمحُ لعدالة الله ان تنتصر من عدالة الإنسان(ولكونها كانت أداة للعدالة، وليس من خوف، فإنها لم تكن تريد أن يحل بها العقاب). وبعد ذلك، توقع رصاصة واحدة في منتصف الصدر مصير لوفينتال. بيد أن الأمور لم تجر على هذا النحو.

إزاء هارون لوفينتال، لم تشعر إيمّا بضرورة الانتقام على عجل لوالدها، قدر شعورها بالرغبة في معاقبة الفعل الشائن الذي عانته في

سبيل ذلك . لم يكن باستطاعتها ألاّ تقتله بعد تلك الوصمة البالغة الدقة، كما لم يكن لديها متسع من الوقت للقيام بألاعيب مسرحية . والتمست، وهي قاعدة، خجلى، أعذاراً من لوڤينتال ثم ادعت (بصفتها واشية) واجبات الولاء له فذكرت بضعة أسماء، ولمحت إلى أخرى قبل أن تجم كما لو أن الذعر قد سيطر عليها . احتالت على أن يغادر لوڤينتال الحجرة بحثا عن قدح ماء . وعندما عاد هذا من المطعم، وهو لا يصدق- رغم حِلمه- مزاعم التأثر المبالغ فيه، كانت إيما قد أخرجت من الدرج المسدس الثقيل . ضغطت على زناده مرتين . خر الجسم الضخم كما لو حطمته الفرقعتان والدخان، وتكسر كأس الماء، وحملق فيها الوجه في استغراب وغيظ، وشتمها فم الوجه بالإسپانية واليديّة . الكلمات السيئة لا تتراجع، فكان على إيما أن تُطلق النار كرةً أخرى . وانفجر الكلب، المكبل، نابحاً في الفناء، واندلق من الشفتين الفاحشتين دفق دم مفاجيء فلطخ اللحية والملابس . شرعت إيما في النطق بالاتهام الذي هيأته («لقد انتقمت لوالدي، وليس بإمكانهم إنزال العقاب بي ...») . غير أنها لم تتممه لأن السيد لوڤينتال كان قد قضى نحبه . لم يعرف قطُّ ولا تمكن من أن يفهم .

ذكّرها النباح المتوتّر أنها لن تستطيع الاستراحة بعد . أخلت بنظام الديوان، وفكت أزرار سراويل الجثة، ثم نزعت نظارتيها الملطختين وتركتهما فوق خزانة البطاقات . بعد ذلك رفعت السماعة وأعادت ما سبق أن كررته عدة مرات، بهذا اللفظ أو غيره : «وقع أمر لا

يصدق ... لقد طلب السيد لوفينتال حضوري بحجة الإضراب ... هتك عرضي فقتلته ... . » .

لم تكن القصة لتصدق في الواقع، لكنها فرضت نفسها على الجميع، لأنها كانت بالضرورة صائبة. كانت لهجة إيما ثونث حقيقية، كما كان خجلها وحقدها حقيقيين، وكذا الإهانة التي لحقت بها، ولم يكن الزائف سوى الظروف واسم واحد أو اسمان لا غير.

رجلٌ في العتبة

أحضر بيُوي كَسَاريسْ من لندن مديةً غريبة ذات حدّ مثلث ومقبض في شكل H، وقال صديقنا كريستوفرديوي، وهو من المجلس البريطاني، بأن استعمال أسلحة من ذلك القبيل كان أمراً شائعاً في الهندوستان. وقد شجعته هذه الفتوى على أن يذكر بأنه عمل بذلك البلد فيما بين الحربين (أتذكر أنه قال باللغة اللاتينية Ultra auroram et gan-gen–مخطئا بيتا من شعر خُوڤينَال). ومن بين القصص التي رواها في تلك الليلة، سأتجرأ على إعادة تركيب القصة التالية. سيكون نصي أمينا: فلتحررني اللهمّ من غواية إضافة ملامح ظرفية موجزة أو من

التشديد، باستعمال تذييلات من نحو ما يستعمله كيپْلينگ، على المظهر الأجنبي للقصة. فهي، فضلا عن ذلك، تتوفر على نكهة قديمة وبسيطة سيكون فقدانها مؤسفًا، لعلها نكهة ألف ليلة وليلة.

«إن جغرافية مضبوطة للوقائع التي سأحكيها لاتهم إلا قليلا. فأية دقة ستحتفظ بها، في بوينُوس آيْريس، أسماءُ من قبيل أمريتسار أو أوده؟ لأكتف إذن بالقول إنه وقعت في تلك الأعوام اضطرابات في مدينة إسلامية وأن الحكومة المركزية بعثت رجلاً قويًا لفرض النظام بها. وكان الرجل اسكتلنديا من قبيلة محاربين ذائعة الصيت، تجري في عروقه تقاليد العنف. لقد بصرت به عيناي مرة واحدة، غير أني لن أنسى شعره الفاحم، وصدغيه البارزين، وأنفه الشره وفمه، وكتفيه الواسعين وهيكله الفيكينگي القوي. سيُدعى في قصتي، هذه الليلة، داڤيدْ ألكْسَنْدْر گْلينْكْرنْ، واللقبان متلائمان لأنهما كانا لملكين حكما بصولجان من حديد. إن داڤيدْ ألكسندر گلينكرن هذا (ويجب أن أتعود تسميته على هذا النحو) كان، وأنا شاك في هذا الوصف، رجلا مخوفا، إذ أن إعلان استقدامه كان كافيًا وحده لتهدئة المدينة. بيد أن ذلك لم يحل بينه وبين إقرار إجراءات عنيفة متنوعة. ومضت بضع سنين. كانت المدينة وناحيتها في سلام: فلقد وضع السِّيخُ والمسلمون حدًا لخلافاتهم القديمة. ثم سرعان ما اختفى گلينكرن. بطبيعة الحال، لم يخْلُ الأمرُ من شائعات تفيد بأنه اختُطف او اغتيل.

لقد اطلعت على هذه المجريات عن طريق رئيسي نظرا لأن الرقابة

كانت صارمة كما أن الصحف لم تعلق على اختفاء گْلينكْرن (بل لعلها لم تسجل ذلك، إن لم تخني الذاكرة). يقول مثلٌ بأن الهند أكبر من العالم، فإذا كان گْلينْكرِنْ، حسب الظن، مطلق التصرف في مدينة صيَّرته إليها مشيئة توقيع في مؤخرة قرار، فإنه لم يكن أكثر من رقم في تروس إدارة الإمبراطورية. لقد كانت تحريات الشرطة المحلية غير ذات جدوى على الإطلاق، ففكر رئيسي بأن فردا قد يثير القليل من الشبهات ويحقق نجاحاً أفضل. بعد يومين أو ثلاثة (والمسافات، في الهند، سخية) أدركني التعب وأنا أطوفٍ، دون أمل كبير، بشوارع المدينة الثخينة التي أخفت في تضاعيفها رجلا.

شعرتُ، أكاد أقول لتوي، بالحضور اللانهائي لمؤامرة غرضها إخفاء مصير گْلينْكرِنْ. وتمكنت من أن ارتاب في أنه لا توجد نَفْسٌ في هذه المدينة لا تَعلَم السر ولم تُقسم على عدم البوح به. أما الأكثرية، حينما استنطقوا، فقد عبروا عن جهل لاحد له: كانوا لا يعرفون من هو گلينْكرِنْ، ولم يروه قط، ولم يسمعوا عنه حديثا. وعوض ذلك، رآه آخرون منذ ربع ساعةٍ وهو يتحدث الى فلان، واصطحبوني الى المنزل الذي دخله كلاهما، والذي لا يدري أهله شيئا عنهما، أو أنهما غادراه منذ لحظة. لقد ضربت أحد هؤلاء الكذابين المدققين بجماع القبضة على الوجه. وافق الشهود على انفجار غيظي، فابتكروا أباطيل أخرى لم أصدقها، بيد أني لم أجرؤ على عدم الاستماع إليها. وذات مساء ترك لي أحدهم ظرفا صحبة سير من ورق كانت به بعض العلامات...

كانت الشمس قد مالت عندما وصلْتُ. وكان الحيُّ شعبيًا ومتواضعًا، والمنزل واطئًا جدًا، ومنذ الرصيف تبينتُ سلسلة من الأبهاء المتربة في قاعها فُرجة ضوء. وكان يجري في البهو الأخير احتفالٌ بعيد إسلامي لا أدري ما هو، ودخل أعمى بآلة عُودٍ قُدتْ من خشب محمر.

عند قدميَّ، كان رجل عجوز يتربَّع في العتبة بجمود جدير بالجمادات. سأصف كيف كان، لأنه جزء جوهري من قصتي. لقد أنحلته السنون العديدة وصقلته مثلما تصقل المياه حصوةً أو أجيال الرجال عبارةً. أسمالٌ طويلة تغطيه، أو ذلك ما تهيأ لي، والعمامة التي تلتف حول رأسه لم تكن غير خرقة إضافية. وفي الغروب أدار نحوي وجهًا معتمًا ولحية شديدة البياض. حدثته عن داقيدْ ألكسندر گلينكرنْ دون مقدمات لكوني فقدتُ كل أمل. لم يفهم (أو لعله لم يستمع اليّ) فكان عليَّ أن أشرح بأن الرجل كان قاضيا وأنني بصدد البحث عنه. حينما تلفظتُ بهذه الكلمات أحسستُ بما في استنطاق هذا الرجل القديم من السخرية، اذ لم يكن الحاضرُ بالنسبة له سوى إشاعة غير محددة. وفكرتُ: إن بإمكان هذا الرجل أن يزوِّد بأنباء عن «التَّمرد»» أو عن «أكْبَارْ»، لكن ليس عن گلِينْكْرنْ. ولقد أكد ظنِّي ما قال، اذ تلفظ باستغراب ضئيل:

-قاض! قاض ضاع ويبحثون عنه. لقد وقع هذا الحادث عندما كنتُ صبيًا. لا عِلْم لي بالتواريخ، لكن لم يكن قد قضى نحبه بعدُ نِيكَالْ

سينْ (نِيكُولْسَنْ) عند سور دِلْهي. إن الزمن الذي مضى يمكث في الذاكرة، ولست أرتاب في أني جدير باسترجاع ما حدث حينذاك. لقد سمح الله، وهو في غيظ، أن يَفْسُد الناس، فكانت الأفواه غاصةً باللعنة والخُدع والاحتيال. لم يكن الجميع فاسداً ولاشك. فعندما نودي بأن الملكة ستُرسل رجلاً يطبق في هذا البلد قانون إنكلترا، سُرَّ أقلُّهم سوءاً لأنهم شعروا بأن القانون أفضل من الفوضى. وصل الرجل المسيحيُّ فلم يتوان عن مخالفة واجباته وممارسة القمع، عن التلطيف من الجنايات البغيضة وبيع القرارات. لم نُحَمِّله المسئولية بادئ الأمر، فالعدالة الإنجليزية التي كان يُدبِّرها لم تكن معروفة من أحد ولعل العثرات التي صدرت عن القاضي الجديد تُوافق عللاً صالحة وسرية. كنا نحب أن نفكِّر بأن «لكل أمر علةٌ في كتابه»، غير أن مشابهة ذلك القاضي لكل قضاة العالم السيئين كانت بالغة النباهة، فكان علينا، في النهاية، أن نقبل بكونه مجرد شرير. لقد غدا مستبداً، ولكي ينتقم الناس البسطاء للأمل الخاطئ الذي وضعوه فيه ذات مرة عملوا على تقليب الرأي في فكرة اختطافه ومحاكمته. إن القول لا يكفي، ومن التصورات كان عليهم أن ينتقلوا إلى الأفعال. ربما لم يكن أحد، سواء من أشد الناس سذاجة أو أوفرهم شبابًا، يعتقد بأن هذا الاقتراح الجسور يمكن أن ينفَّذ، بيد أن آلاف السِّيخ والمسلمين كانوا عند كلمتهم فنفذوا ذات يوم، وهم لا يصدِّقون، ما كان يبدو لكل امرئ منهم أمراً مستحيلا. اختطفوا القاضي وجعلوا محبسه ضيعة في ربعٍ منعزل. وبعد ذلك، تعهدوا

للأشخاص الذين تعرضوا لعدوانه أو للأيتام والأرامل (في حالة ما)، نظراً لأن سيف الجلاد لم يكن قد خلد إلى الراحة في تلك الأعوام. وفي خاتمة المطاف- وهو ما كان، حسب الظن، من أعسر الأمور- بحثوا عن قاضٍ لمحاكمة القاضي فعينوه.

وهنا قاطعته بعض النسوة اللواتي كن يدخلن المنزل.

ثم تابع ببطء:

- من المعلوم أنه لا يوجد جيل لا يتوفر على أربعة رجال راشدين يدعمون الكون خفية ويبررونه أمام الرب: ومن المحتمل أن يكون أحد هؤلاء الرجال المبجلين أكثر القضاة نزاهة. لكن، أين يمكن العثور عليهم، وهم يسيرون في الأرض ضائعين، نكرات لا يمكن التعرف عليهم حين رؤيتهم، كما أنهم هم أنفسهم لا يدرون أية مهمة سامية يشغلون؟. حينئذ تحدث البعض قائلاً بأنه إذا كان القدر قد حرمنا العارفين فيجب أن ننشُد الحمقى. وغلب هذا الرأي. التحق بهيأة المحكمة حفظة القرآن، وفقهاء الشريعة، وسيخٌ يحملون أسماء أسود ويعبدون إلهًا واحداً، وهندوس يعبدون عديد الآلهة، ورهبان المَهَافيراَ الذين يعلِّمون بأن شكل الكون رجلٌ قدماه منفرجتان، وعَبَدَة النار، ويهود زنوج، بيد أن القرار النهائي عُهِد به إلى اعتباط مجنون.

وهنا قاطعه بعض الأشخاص الذين كانوا يغادرون الحفل، فكرر:

-الى مجنون كي تتحدث حكمةُ اللّه عبر فمه فتخجل العجرفات البشرية. لقد ضاع اسمه أو لم يُعرف قط، لكنه كان يمشي عاريًا في هذه

الطرقات، أو مكسواً بأسمال، يُحصي الأصابع بإبهامه ويستهزئ بالأشجار.

تمرد حسي السليم فقلت بأن إعطاء مجنون حرية القرار سيُبطِلُ المحاكمة، فكانت الإجابة:

- لقد قبل المتهمُ القاضيَ. لعله أدرك مبلغ الخطر الذي قد يتعرض له المتآمرون فيما لو تركوه وشأنه، فلم ينتظر صدور حكم بعدم موته إلا من مجنون. سمعت أنه ضحك حينما أخبروه من يكون القاضي. واستمرت المحاكمة أياماً وليالي عديدة، بسبب تنامي عدد الشهود.

صمت. لقد شغله شاغل. وحتى أقول شيئا فقد سألت عن عدد الأيام.

أجاب:

-تسعة عشر على الأقل.

وعاد الأشخاص الذين يغادرون الحفل إلى مقاطعته. إن الخمر محرم على المسلمين، بيد أن الوجوه والأصوات كانت تبدو أشبه بوجوه السكارى وأصواتهم. وصرخ أحدهم فيه بكلام، فيما كان ماراً.

قال مصححاً:

-تسعة عشر يوماً بالتحديد. استمع الكلب الكافر الى الحكم، وانغرست المدية في حنجرته.

كان يتحدث بفظاظة مرحة. ثم أنهى القصة بصوت آخر:

-مات دون خوف، وفي أشدِّ القوم دناءةً قد توجد فضيلةٌ ما.

سألته :

-أين حدث ما حكيته؟ هل في ضيعة؟

لأول مرة نظر في عينيَّ. بعد ذلك أوضح ببطء وهو يزنُ كلماته :

-قلتُ إنهم حبسوه في ضيعة، ولم أقل حاكموه بها. لقد حاكموه بهذه المدينة، وفي منزل شبيه بكل المنازل، وشبيه بهذا. إن المنزل لا يمكن أن يتميز عن آخر، والمهم هو معرفة ما إذا كان قد بُنيَ في الجنة أو في الجحيم.

سألتُه عن مصير المتآمرين فقال لي بصبر :

-لست أعلم. لقد حدثت هذه الأمور ونسيت منذ سنين عددا. لعل الناس أدانوهم، أما الله فلم يفعل.

عندما قال ذلك، نهض. وشعرت بأن كلماته تودعني وأنني انتهيت بالنسبة له منذ تلك اللحظة. وفاضت شرذمةٌ مكونةٌ من رجال ونساء ينتمون الى كل أمم البنجاب، وهم يبتهلون وينشدون، فأوشكت على سحقنا : لقد أربكني أيما إرباك أن يخرج من أفنية بالغة الضيق، لم تكن أكثر من دهاليز طويلة، ذلك العدد الغفير من الناس. وكان غيرهم يخرجون من دور مجاورة، قد تخطوا السياجات ولا ريب... جعلت طريقي سالكا بقوة الدفع والسِّباب. وفي الفناء الأخير مررت برجل عار، مكلل بزهور صفراء، في يده سيف، وكان الجميع يقبله ويبالغ في إكرامه. كان السيف متسخا لأنه اودى بحياة گلينكرن، الذي عثرت على جثته الممزقة في مرابط الخيل بقاع المنزل».

الدنوّ من المعتصم

كتب فيليپ جاد الله بأن رواية The Approach to Al Mu' tasim التي ألفها المَحَامي مِيرْبَاهَادُورْ عَلِي، وهو من بومبايْ، «هي مزيج مزعج إلى حد ما (a rather uncomfortable combination) من قصائد الإسلام الأليغورية التي لا تُخفق إلا نادراً في لفت انتباه مترجمها وتلك الروايات البوليسية التي تتجاوز، ولا مفر، جُون هـ. واطْسَن، وتسعى محسِّنةً رعبَ الحياة البشرية في قلب أكثر بنسيونات بْرَايْطَنْ تعذرا على اللوم». وقبل ذلك كان السيد سِيسِيل رُوبِرْتس قد ندد في كتاب بَاهَادُور «بوصاية

مزدوجة يتعذر تصديقها، هي وصاية ويلكي كولينس والفارسي الذائع الصيت فريد الدين العطار، أحد رجالات القرن الثاني عشر»-وهي ملاحظة وديعة استعملها جاد الله مرة أخرى دون تجديد يذكر، لكن في لهجة مسعورة. إن الكاتبين، في الجوهر، متفقان: فكلاهما يشير الى الإوالية البوليسية للأثر، وإلى تياره الصوفي المستور(Undercurrent). ولعل من شأن هذا التهجين أن يدفعنا الى الظن بوجود قرابة ما مع تشسْطيرْطَنْ، بيد أننا سنبرهن على أنه لا وجود البتة لشيء من ذلك.

ظهرت الطبعة الأولى، من«الدنو من المعتصم» في بُومْبَايْ أواخر سنة 1932. كان ورقها شبيها بورق الجرائد، ويعلن الغلاف للقارئ أن الأمر يتعلق بأول رواية بوليسية يكتبها أحد أبناء بُومَبَاي سيتي. استنفد الجمهور، في بضعة أشهر، أربع طبعات من فئة ألف نسخة، وأجزلت التقريظ صحف «بُومْبَايْ كْوَارْتِرْلِي رِيفْيُو» و«بُومْبَاي گازيط» و«كَالكُوتَا رِيفْيُو» (التي تصدر في مدينة الله آباد) و«كالكُوتا إنگليشْمَن». إذ ذاك أصدر باهادور طبعةً مزينةً بالرسوم عنونها The conversation with the man called Al Mu'tasim مضيفا بعد ذلك هذا العنوان الفرعي الجميل: A game with shifting mirrors (لعبة مرايا في حالة تنقل). وهي نفس الطبعة التي أعاد نشرها بلندن ڤيكتور گولانكز بمقدمة من وضع ضوروتي ل. صايرز مع حذف الرسوم- شفقة بالقارئ فيما يبدو. إن هذه الطبعة هي التي بين يدي فلم استطع الحصول على الطبعة الأولى التي تسمح لي بقراءة ذيل يلخص الفرق الأساسي بينها وبين طبعة

1934بالحدس أنها كانت أرفع مقاما. وقبل فحص هذا الفرق ومناقشته سأشيرُ بسرعة الى المجرى العام لأحداث الكتاب.

إن بطله المرئي -الذي لا نخبر مطلقًا باسمه - طالب حقوق من بومباي، ارتد عن الدين الإسلامي، دين آبائه، وأغلظ له القول. بيد أنه في ليلة العاشر من شهر مُحَرَّم وجد نفسه على حين غرة في قلب فتنة أهلية بين المسلمين والهندوس. كانت ليلة طبول وابتهالات، واخترقت سبيلها، خلال الحشود المعادية، الويةُ الموكب المسلم المصنوعةُ من ورق. حَلَّقَت من سقف هندوسي قطعة آجر. ودفع امرؤ خنجراً في إحدى البطون، وهلك شخصٌ وديس بالأقدام فلا يُدرى هل كان مسلما أم هندوسياً. تقاتل ثلاثة آلاف رجل: هراوة ضد مسدس، وشتيمة ضد لعنة، والله الواحد الأحد ضد الآلهة العدد. دهش الطالب المتحررُ الفكر فتسرب الى الفتنة حيث قتل بيديه اليائستين أحد الهندوس -أوظن أنه فعل. وتدخلت شرطة شيركَار (قاصفة، راكبةً، قد أوقظت معجلةً) بضربات من سياط غير متحيزة. هرب الطالب تكادُ تدهسُه حوافر الخيول و قصد الأحياء القاصية فعبر ممرين للسكة الحديد أو عبر مرتين نفس الممر. وتسلق سور حديقة غير مشذبة ينهض في عمقها برجٌ دائري. إنبعثت من بين الأقصاب السود زمرةُ كلاب قمرية اللون a lean and evil mob of moon- coloured hounds فشعر الطالب بأنه محاصَرٌ والتمس في البرج ملجأً. صعد سُلَّمًا من حديد- تنقصه بضع درجات- فألفى على السطح، حيث يوجد بئر داكن، رجلا شديد الشحوب يتبول

بقوة وقد جلس القرفصاءَ تحت ضوء القمر.

اعترف له هذا الرجل بأن مهنته هي سرقةُ الأسنان الذهبية من الجثث المكفنة بالبياض التي يضعها البارسيون في البرج. قال أمورا دنيئة أخرى وذَكَر بأنه لم يتطهر بروث الجاموس منذ أربعة عشر ليلة. وتحدث بحقد جلي عن بعض لصوص الخيول في گُوخيرات، «أكلة الكلاب والحراذين، الذين هم، في مقام الشّناعة، مثلنا». مع الفجر، حلّقت على علوٍّ منخفض عقبانٌ سمينةٌ، فنام الطالب منهكا. وعندما استيقظ، تحت شمس في كبِد السماء، كان اللص قد اختفى، واختفى معه زوج سيجار صنع تْرينشْينُوپولي وبضع روبيات من فضة. إزاء تهديدات الليلة الماضية، قرر الطالب التوغل في الهند والضلال فيها. وفكر بأنه برهن على أهليته في قتل عابد أوثان، بيد أنه لم يبرْهن على قدرته في أن يعلم علم اليقين هل كان المسلم محقًا أكثر من عابد الوثن. لم يفارقْه اسم گُوخيرَاتْ، ولا اسم مَالْكَاسَانْسيَّة (وهي امرأة من سلالة اللصوص) من پَالاَمْپُورْ كانت المرمى المفضل لشتائم سارق الجثث وحقده. وفكر متأملاً أن إهانةً تصدرُ عن رجل بالغ الخسة تعادل قول مديح، فقرر البحث عن المرأة، دون أملٍ كبير. صلّى، ثم اتخذ طريقه الطويل ببطء مكين. هنا ينتهي الفصل الرابع من الكتاب.

إنه من المستحيل رواية تطورات الفصول التسعة عشر الباقية. فهناك تكاثر غثياني للشخصيات- حتى لا نتحدث عن بيوغرافية يبدو أنها تستنفد حركات الفكر البشري (بدءاً بالفضيحة ووصولاً إلى التأمل

الرياضي) ولا عن طواف يحتضن جغرافية الهندوستان المترامية الأطراف. إن القصةَ التي استُهلت في بُومبَاي تتواصل في أراضي بالاَمَپُورْ الوطيئة، وتتأخر مدى أمسية وليلة أمام باب بيكَانير الصخري، وتحكي موت فَلَكي أعمى في بالوعة ببيناريسْ، وتتآمر في قصرْ كَاتمَانْدُو المتعدد الأشكال، وتصلي وتنكح في نتانة كَالْكُوتَا الموبوءة بمَاشْوَا بزارْ، وترقبُ ميلاد النهارات في البحر من نوافذ مكتب عُدول من مَدْراس، وترقب موت الأماسي في البحر من شرفة في ولاية طَرَافَانْكُور، وتتردد وتقتل في إينْدَاپُورْ ثم تُغْلقُ مدارها، المؤلفً من فراسخَ وسنوات، في بُومْبَاي ذاتها قاب قوسين أو أدنى من الحديقة ذات الكلاب القمرية اللون. إليكم الحبكة: يقع رجل، هو الطالب الكافر الفار الذي عرفناه، في وسط أقوام من الصنف الأشد وضاعةً فيعمل على مساواة ذاته بهم في مباراة فضائح. وفجأةً لمح، في ذعر مُعجز شبيه بالذعر الذي اعترى رُوبِينْسَن إزاء أثر قدم إنسان على الرملْ - لمح تصرفًا يلطِّف من هذه الشَناعة: حنُوا، أو حماسةً، أو صمتًا لدى أحد أولئك الرجال المبغضين. «لقد كان الأمر أشبه بحوار يدخله متحدثٌ ثالث أ... تعقيداً». كان يدرك أن الرجل الوضيع الذي يخاطبه امرؤٌ عاجزٌ عن هذه اللياقة فافترض بأنه كان يعكس في تلك اللحظة صديقا، أو صديق صديق. وعندما تأمل الطالب المسألة مجدداً توصل الى هذه القناعة الخافية: ففي مكان ما على سطح الأرض يوجد رجل يفيض عنه هذا الصفاء، في مكان ما على سطح الأرض يوجد الرجل الذي هو نظير هذا

الصفاء. إذ ذاك قرر الطالب أن يهب حياته خالصةً للبحث عن هذا الرجل.

هكذا نلمحُ مسبقًا الموضوع العام للكتاب: البحث الذي لا يرتوي ظمأه عن نفس من خلال الانعكاسات اللطيفة التي تركتها في نفوس أخرى. يتعلق الأمر في البداية بأثر رقيق صادر عن ابتسامة أو كلمة، و يتعلق عند الختام بهالات متنوعة ومتنامية تصدر عن العقل أو المخيلة أو أفعال الخير. وكلما كان الرجال المستجوبون قد عرفوا المعتصم عن قرب بالغ، ازداد نصيبُهم من الألوهية عظَمًا، ومن الواضح أنهم لم يكونوا، مع ذلك، سوى مرايا. واذا طبقنا مصطلحات رياضيةً قلنا بأن رواية بَاهَا دُور المثقلة هي تطورٌ متصاعد غايتُه النهائيةُ: «الرجل المدعو المعتصم». إن السلفَ المباشرَ للمعتصم كُتُبِيٌّ فارسي عاش في كمال اللياقة والسعادة، وسلفُ هذا السلف قديسٌ... . وعند منتهى سنوات طويلة، توصّل الطالب الى رواق «يوجَد في آخره بابٌ وستارةٌ زهيدة الثمن بها خرزاتٌ و، خلف ذلك، يتلألأُ شعاع». صفق الطالب كفيه مرة ثم مرتين طالبًا المعتصم، فحثه صوتُ رجلٍ- صوت المعتصم المتعذر التصديق-على الدخول. يزيح الطالبُ الستار جانبًا ويتقدم. تنتهي الرواية عن هذا الحد.

ما لم أخطئ، فإن الإنجاز الحسن لحبكة من هذا النوع يفرض على الكاتب واجبين اثنين: أولا، الابتكار الغزيرَ والمتنوع لتفاصيل مُبَشِّرة، وبعد ذلك، الاهتمام بألاَّ يكون البطلُ الذي تشخصه هذه التفاصيل

مجرد صَنْعة أو شبح. ولقد أرضى بَاهَادُوْر الواجبَ الأول، أما الثاني فلست أعلمٌ إلى أي مدى. بعبارات أخرى: إن المعتصم، الذي لم يُسمع ولم يُر، ينبغي أن يترك لدينا انطباعًا بأنه شخصيةٌ واقعيةٌ وليس الانطباعَ بأنه سديم من المبالغات العديمة الطعم. ففي الصيغة الصادرة سنة 1932 كانت الأوصافُ المفارقةُ للطبيعة نادرةً: كان «للرجل المدعو المعتصم» حظُّه من الرمز، بيد أنه لم يكن يفتقر إلى ملامح مزاجية أو شخصية. غير أن هذا السلوك الأدبي السليم كان قصير العمر لسوء الحظ. ذلك أن الروايةَ، في صيغتها الصادرة سنة 1934 (وهي الصيغة التي بين يدي)، تسقط في الشكل الأليغوري: هكذا يغدو المعتصم علامةً دالة على الله، كما تغدو المسارات المحددة للبطل ترجمةً، على نحو من الأنحاء، لتقدم النفس في المراقي الصوفية. من ذلك هذه التفاصيل المؤسفة: يتحدث يهودي زنجي من كُوشِين عن المعتصْم فيقول بأن بشرته كانت معتمة، ويصفه مسيحيٌّ وقد وقف في أعلا صومعة باسطاً ذراعيه، ويستحضره كاهن تبتيٌّ أحمر وهو جالس «نظير تلك الهيأة التي شكلتُها من زبدة قطاس وعبدتُها في دير طَاتْشِيلُومْبُو». إن هذه التصريحات تتقصد التلميح الى مفهوم إله مُوحِّد قادر على التلاؤم مع الفروق البشرية. وهذه الفكرة، حسب رأيي، ضعيفةُ الإثارة. ولن أقول نظير ذلك عن هذه الفكرة الأخرى: وأعني التخمين بأن اللَّهَ القديرَ ذاتَه هو الباحثُ عن شخصٍ، وهذا الشخص يبحث عن شخصٍ أسمى (أو ضروري فحسبٌ، أو مساوٍ له) وهكذا دواليك إلى نهايةِ الزمن أو بالأحرى لا

نهايته أو في شكل دائري. إن كلمة المعتصم (وهي اسم الخليفة العباسي الثامن الذي حالفه الظفر في ثمان معارك، وولد ثمانية بنين وثمانية إناث، وخلَّف ثمانية آلاف من العبيد، وحكم مقدار ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام) تعني من الناحية الاشتقاقية «الباحث عن العاصم». ففي صيغة 1932، كان موضوع الحج هو الحاجُّ نفسُه، الامر الذي يبرر على نحو مناسب صعوبةَ العثور عليه. أما في صيغة 1934 فإن هذا الموضوع يُتيح الفرصةً لظهور اللاَّهوت الخارق الذي أشرتُ إليه. هكذا نرى أن الميرْ بَاهَادُور علي كان عاجزاً عن تفادي أكثر غوايات الفن صفاقةً، وأعني غواية العبقرية.

أعيد قراءة ماسبق فأخشى ألاَّ أكون قد ألححت بما فيه الكفاية على فضائل الكتاب. هناك ملامحُ بالغة التحضر، والمثالُ شجارٌ معين في الفصل التاسع عشر حيث نحدس صديقًا للمعتصم في شخصِ منازعٍ لا يفنِّد مغالطات خصْمِه «حتى لا يكون مُحقاً على نحو لا رجعة فيه».

* * *

من المفهوم أن الكتابَ الجديدَ يَشْرُف باشتقاقه من كتابٍ قديم: فلا أحد، كما يقول جُونْسَن، يفضِّل أن يكون مدينًا لمعاصريهِ بشيء. إن بعض الصلات الملحاحة والتي لا دلالة لها بين «عوليس» جويْس والأوديسة الهوميرية ما تزال تحظى- ولن أدري سبب ذلك أبدا-

بالإعجاب الطائش للنقد، كما تعرف العلاقات بين رواية باهادور والكتاب المبجَّل «منطق الطير» لفريد الدين العطار الصوفي الذي لا يقل غموضا في لندن، وحتى في مدينتي اللّه آباد وكالْكُوتَا. وهناك اشتقاقات أخرى عُثر عليها: فقد وُجد محقق عَدَّد المشابه بين المشهد الأول من الرواية وقصة كيپلينغ On the City Wall. واعترف بَاهَادُورْ بذلك لكنه زعم بأنه سيكون من بالغ الشذوذ ألاَّ يتوفر رسمان لليلة العاشرة من المحرم على نقاط مشتركة. ويُبدي إلْيوتْ إنصافًا أكبر حين يذكِّر بالأناشيد السبعين للأليغورية البتراء The Faerie Queene حيث لا تظهر البطلة گْلُورِيَانَا مطلقاً، كما نبه إلى ذلك تعليق لريتشارْد تشورتش (سپينسر 1879). وبكل تواضع أستطيع من جهتي أن أشير إلى سَلَف ممكن وقصي: أعني إسْحَاق لُورْيَا، قَبَّالي القدس الذي ساند ونشر الفكرةَ القائلة بأن روح سلف أو معلم يمكن أن تنفذ الى روح شخص شقي تأسيةً له أو تربيةً. و Ibbure هو اسم هذا النوع من الحلول. (1)

1) ذكرت، خلال هذا التعليق، منظومة «منطق الطير» للمتصوف الفارسي فريد الدين أبو طالب محمد بن إبراهيم العطار، الذي قتله جنود تولْ، نجل جنكيزخان عندما دمرت نيسابور. ولعله لن يكون من غير المفيد تلخيص القصيدة. فلقد أسقط ملكُ الطيور الغابر،

السيمرغ، ريشة فاتنة في أواسط بلاد الصين فقررت الطيور البحث عنه بعد أن ضجرت من فوضاها القديمة. وكانت الطيور تدرك بأن اسم ملكها يعني ثلاثين طائرا وأن قصره يوجد في قاف، الجبل الدائري الذي يحيط بالأرض، فاندفعت في هذه المغامرة التي تكاد تكون لا نهائية: اجتازت سهولا سبعة أو بحارا سبعة، وكان ما قبل أخيرها يحمل اسم الحيرة ويحمل الأخير اسم الفناء. لقد فر العديد من حجاج الطير بجلده، ولقيت جماعة أخرى حتفها، ولم تضع قوادمها على جبل السيمرغ سوى ثلاثين طيرا مطهرة بما تكبدته من مشاق. تأملته أخيرا فانكشف لها بأنها هي السيمرغ، وأن السيمرغ هو كل فرد منها وهو الجميع (يمكن العثور على توسع فردوسي مماثل لمبدأ التماهي في إعلان أفلوطين («تساعيات»: 4.8.V): إن كل شيء، في السماء المدركة، موجود في كل مكان. وأيُّ شيء هو كلُّ شيء. فالشمس هي كل النجوم، وكل نجمة هي جميع النجوم والشمس). لقد ترجم «منطق الطير» إلى اللغة الفرنسية من طرف كارْسَانْ دوطاسي، وإلى اللغة الإنجليزية من طرف إدْوَارْفيتزْ جيرالد. وبغية صياغة هذا التعليق راجعت المجلد العاشر من ترجمة بُورَتُونْ ل «ألف ليلة وليلة»، وكذا مونوغرافية «المتصوفة الفرس: العطار» (1932) لمَارْكريتْ سْميثْ.

إن الصلات بين هذه القصيدة ورواية مير بَاهَادُورْ ليست مفرطة. فنجد في الفصل العشرين أن بعض الكلمات التي نسبها كتبي فارسي إلى المعتصم قد تكون تفخيما لكلمات أُخر نطق البطل بها، ويمكن اعتبار هذه التشابهات الملتبسة وغيرها إشارة الى التماهي بين المبحوث عنه والباحث، كما يمكن اعتبارها دلالة على أن هذا يؤثر في ذاك. ويلمح فصل آخر إلى أن المعتصم قد يكون «الهندوسيَّ» الذي يعتقد الطالب أنه قتله.

البرلمان

Ils s'acheminerent vers un chateau immense, au frontispice duquel on lisait:" Je n'appartiens a personne et j'appartiens a tout le monde. Vous y etiez avant que d'y entrer, et vous y serez encore quand vous en sortirez"

DIDEROT: "Jaques le Fatalistes et son Maitre" (1769)

إنني أدعى أليخاندرو فيرّي. يتوفر اسمي على أصداء حربية، بيد أنه لا معادن المجد ولا ظل المقدوني العظيم- والجملة من ابتكار كاتب«الرخامات» الذي شَرُفْتُ بصداقته- يشابهان الرجل المتواضع

المشتعل شيبا الذي يرصف هذه الأسطر، في الطابق الأخير من فندق بشارع سَانْتيَاكُوديل إيسطيرُو، في جنوب لم يعد الجنوب المعهود. في أية لحظة سأكون قد بلغتُ السبعين أو يزيد، ولا زلتُ أعطي دروسًا في الإنجليزية لبضعة تلاميذ. وبسبب التردد، والإهمال، أو لأسباب أخرى لم أتزوج، ولذلك أعيش الآن بمفردي. لست أعاني من الوحدة، فإنه لمشقة مفرطة أن يتحمل المرءُ نفسَه وضلالاته. ألاحظ أنني أشيخ، والعلامة التي لا تخطئ هي أن المستجدات لم تعد تهمني ولا تثير دهشتي، ربما لأني أتبين بأن لاشيء جوهري جديد فيها وأنها لا تعدو أن تكون تنويعات خجولة. عندما كنت شابًا يافعًا كنت منجذبًا إلى أوقات الغسق، والأحياء الشعبية، والشقاء، أما اليومُ فإنني أعشق الصبيحات في مركز المدينة كما أحب الدَّعة. لم أعد أمارس دور هَاملت، وانخرطت في الحزب المحافظ وفي ناد للشطرنج أرتاده كمتفرج، شارد اللب في بعض الأحيان. ويمكن لقارئ طُلَعة أن يستخرج من رف معتم بالخزانة الوطنية، في شارع مكسيكو، نسخةً من كتابي «دراسة موجزة للغة جون ويلكينز التحليلية»، فهو يستحق طبعة جديدة ليس إلا لتصحيح الأخطاء العديدة التي يتضمنها أو للتخفيف من حدتها. لقد قيل لي بأن المدير الجديد للخزانة رجلُ أدب صرف جهوده لدراسة اللغات القديمة (كما لو أن اللغات الحديثة لم تعد خَلَقَةً بما فيه الكفاية) وللإعلاء، بطريقة ديماغوجية، من شأن بوينُوس آيَرِيس متخيلةآهلة بالطاعنين بالمُدى. إنني لم أبذل جهدًا يُذكر للتعرف عليه. ومع أني

أسكن هذه المدينة منذ 1899 ، فإن الأقدار لم تضعني إلا مرة واحدة في حضرة طاعن بمدية أو، على الأقل، في حضرة شخص كان يُعرف بأنه أحد أولئك. وسأروي هذه الواقعة، فيما بعد، إذا ما أتيحت لي الفرصة.

أعيش بمفردي إذن، كما ذَكَرْت. وقبل بضعة أيام قال لي جَارٌ يقيم بنفس الطابق وكان قد سمعني أتحدث عن فِيرْمِينْ إِيكُورِينْ بأن هذا الاخير قضى نحبه في پُونْطَا دِيلْ إِيسْطِي.

لقد عاند موت هذا الرجل، الذي لم يكن قط صديقًا لي على الوجه الحقيقي، في إثارة أحزاني. أعلم أنني سأبقى بمفردي، وأنني الشخص الوحيد على سطح البسيطة الذي يحتفظ بذكرى ذلك الحدث الذي كان البرلمان، ولا يستطيع أن يسرها لأحد. من الآن فصاعداً، أنا البرلماني الأخير. صحيح أن كل الناس هم برلمانيون، وأنه لا يوجد كائن على الأرض ليس كذلك، بيد أني برلماني على نحو مختلف، وأعرف أنني هكذا، وذلك ما يميزني عن زملائي العديدين، الحالي منهم ومن لا يزال طي المستقبل. صحيح أننا، في يوم 7 فبراير 1904، أقسمنا بأقدس ما نملك- وهل هناك على الأرض شيءٌ مقدس وآخر على خلاف ذلك؟- ألا نكشف لأحد قصةالبرلمان، غير أن حنثي الآن هو جزء لا يتجزأ من البرلمان ذاته. إن تصريحي غامض، بيد أن ذلك يمكن أن يوقظ حب الاستطلاع لدى قرائي المفترضين.

مهما يكن، فالمهمة الملقاة على عاتقي ليست بالأمر السهل. إنني لم

أمارس قط النوع السردي حتى في شكله التراسلي، والأدهى من ذلك هو أن القصة التي سأحكيها متعذرة التصديق. لقد كان الواجب أن توكل هذه المهمة الى قلم خُوسِي فِيرْنَانْديث إِيرَالا، شاعر «الرخامات» الذي نُسِيَ ظلما، بيد أن ذلك غير ممكن اليوم. سوف لن أزَوِّرَ الوقائع بمحض اختياري، غير أني أخشى أن ترغمني مِرارًا ذاكرتي الكسولة، ونوع من سوء التصرف، على ارتكاب أخطاء.

إن التواريخ المدققة غير ذات بال، فلنذكر بأنني غادرتُ سانطافي، إقليمي الأصلي، في 1899. لم أعد الى ذلك المكان مطلقا، فقد تعودت على بوينوس آيريس، مع أنها مدينة لا تجذبني، مثلما يتعود المرء على جسده أو على عاهة قديمة. أتوقع، دون أن أعلق كبير أهمية على ذلك، أنني سأقضي نحبي قريبا، لذا يتحتم أن أقلل من جنون الاستطراد فأتقدم بسردي قليلا.

إن الأعوام لا تغير جوهرنا، إن كان لنا جوهر، فالحماس الذي انبغي أن يقودني ذات مساء الى برلمان العالم كان من نفس جِبلَّة الحماس الذي حدا بي، بدءا، إلى الالتحاق بإدارة تحرير صحيفةULTIMA HORA (آخر ساعة). إن الانخراط في سلك الصحفيين، بالنسبة لشاب مسكين من الإقليم، يمكن أن يكون مصيراً رومانتيكيا مثلما يمكن أن يجد فتى من العاصمة مصير گاوتشو أو عامل ضيعة أمرا رومانتيكيا. لست أخجل من كوني أردت أن أكون صحفيا، هذه المهنة التي تبدو لي اليوم مبتذلة. أتذكر أني سمعتُ زميلي فيرنانديث إيرالا يقول بأن ما يكتبه الصحفي

يسقط في النسيان بينما رغبته هو أن يكتب للذاكرة والزمن. كان قد فرغ من صقل (والتعبير كان شائع الاستعمال) بعض سونيتاته المتقنة التي كان من المتوقع أن تنشر بعد ذلك، مع بعض التصويبات الطفيفة، في مجموعته الشعرية «الرخامات».

لا أستطيع أن أقول في أية لحظة بالضبط تناهى الحديث عن البرلمان لأول مرة إلى سمعي. لعلها كانت مساء ذلك اليوم الذي سلم لي فيه صاحب الحسابات أول أجرة شهرية اتقاضاها، وحيث دعوت إيرالا لتناول الطعام معي، احتفاء بهذه المناسبة التي تبرهن على قبول بوينوس آيريس لي. لكن الرجل اعتذر عن تلبية طلبي قائلاً بأنه من الضروري أن يذهب الى البرلمان. أدركت لتوي أنه لم يكن يُلمّح الى البناية المدعية ذات القبة والموجودة في منتهى شارع يقطنه الإسپان، وإنما الى أمر ما أشد سرية وأكثر أهمية. يتحدث الناس عن البرلمان فيسخر بعضهم منه جهارا، ويسخر بعضهم الآخر همسا، ويسخر آخرون برعب أو حب استطلاع. غير أنهم جميعا، وهذا ما اعتقد، يفعلون ذلك عن جهالة. بعد بضعة أسبات دعاني إيرالا لمرافقته، وأسر اليّ بأنه قد قام بكافة الإجراءات اللازمة.

كانت الساعة التاسعة ليلا او العاشرة. وفي الترام، قال لي إيرالا بأن الاجتماعات التمهيدية تنعقد كل يوم سبت وأن ضون أليخاندرو گلينكوي قد أعطى موافقته على حضوري - ربما بسبب اسمي. دخلنا الى قاعة الحلوى، وكان البرلمانيون، وعددهم خمسة عشر أو عشرين

تقريبا، يلتفون حول طاولة مديدة، غير أني لست أعلم ما إذا كانت هنالك منصة أم أن ذاكرتي تزعم ذلك. تعرفت للتو على الرئيس، الذي لم أكن رأيته من قبل. كان ضون أليخاندرو رجلا متقدم السن، ذا حضور وقور، وجبين عار من الشعر، وعينين رماديتين، ولحية شيباء مائلة الى الحمرة. رأيته يرتدي دائما سترة معتمة، ويتكئ، ويداه مشتبكتان، على عصا. وكان طويلا على بدانة بارزة. كان يجلس الى يساره رجل أصغر سنا منه، وأصهب ايضا، وكان لون شعره العنيف الحمرة يذكر بالنار بينما تذكر لحية السيد كلينكوى بأوراق الخريف. أما عن يمينه فيجلس فتى ذو وجه مستطيل وجبهة خفيضة بشكل شاذ، يرتدي لباس متأنِّق. كان أغلب الحضور قد طلب قهوة، وطلب البعض شراب الإبْسِنْت. وكان أول ما لفت انتباهي حضور امرأة، بمفردها، بين ذلك العددَ من الرجال. وعلى الطرف الآخر من الطاولة كان هنالك صبي في العاشرة من عمره، يرتدي بذلة بحار، لم يلبث أن استغرق في النوم، كما كان هناك قس بروتستانتي، ويهوديان لا ريب، وزنجي أحاط رقبته بمنديل من حرير وارتدى ملابس بالغة الإحكام على طريقة الفتيان الشنيعين الذين يُرون واقفين عند منعطفات الشوارع. وكان قد وُضع إزاء الزنجي والصبي قدحان من الشكولاته. لست أتذكر بقية الأشخاص عدا المدعو مَارْثيلُو ديلْ مَاَثُو، وكان رجلا شديد اللباقة، رقيق الحديث، لم أبصره قط مرة أخرى. إنني احتفظ بصورة مضببة وناقصة التُقطت خلال إحدى الجلسات، بيد أني لن أقوم بنشرها نظرا لأن ملابس ذلك الزمان،

والشعور الطويلة والشوارب، تضفي على الأعضاء هيأة هازلةً بل بئيسة قد تعطي عن هذا المحفل فكرة زائفة. تميل كل الجمعيات الى ابتكار لغتها الخاصة وطقوسها المميزة، ويبدو أن البرلمان، الذي يكتسي في نظري دائماً صفة حلم، كان يريد للمشاركين فيه أن يكتشفوا، دون عجلة، الهدف الذي ينوى بلوغه، وحتى أسماء زملائهم وألقابَهم. هكذا لم أتوان عن التنبه إلى أن واجبي يقتضي ألا أطرح أسئلة فامتعنت عن مساءلة فيرنَانْديثْ إيرَالاَ الذي لم يقل لي، بدوره، شيئا على الإطلاق. لم أتخلف عن الذهاب في أي سبت، بيد أن شهراً أو شهرين مضيا قبل أن أفهم ما يجري. وانطلاقا من الاجتماع الثاني ادركت أن جاري كان يُدعى دُونَالْدْوْرِينْ، وهو مهندس «سكك الجنوب الحديدية» الذي سيعطيني دروسا في اللغة الانجليزية. كان ضون أليخاندرو نادر الكلام ولم يكن الآخرون يتوجهون إليه بالخطاب. غير أني شعرت بأنهم لا يتحدثون إلا اليه، وأنهم يلتمسون موافقته. لقد كانت إشارة بطيئة من يده كافية كي يتغير موضوع النقاش. وتمكنت أخيرا من اكتشاف أن الرجل الأصهب الذي يجلس إلى يساره، يحمل اسما غريبا هو تْويرْل. أتذكرهيأته الهشة، التي هي ضريبة بعض الأشخاص المفرطي الطول الذين يقفون كما لو أن قامتهم تصيبهم بالدوار فترغمهم على التقوس، كما أتذكر أن يديه كانتا تلعبان، عادة، ببوصلة من نحاس يتركها أحيانا على الطاولة. كان جنديا في فيلق مشاة إيرلندي، ومات في نهاية سنة 1914. أما الشخص الذي يجلس دوما الى اليمين فكان الشاب ذا الجبين

الخفيض، فيرمين إيگورين، حفيد الرئيس من جهة اخته. لست أومن بمناهج الواقعية، فهي، إن وجدت، نوع مصطنع، ولذا أفضل أن اكشف دفعة واحدة ما اكتشفته على نحو تدريجي. على أنني سأذكر القارئ بوضعيتي اذ ذاك: كنت فتى عديم الأهمية من مواليد كَاسيلْدَا، وابنا لمزارعين، وصل الى بُوينُوس آيْريس فوجد نفسه فجأة، مثلما شعرت بذلك، في قلب العاصمةوربما- من يدري؟-في قلب العالم. لقد مرَّ نصف قرن ومازلت اتذكر ذلك الانبهار الأول، الذي لم يكن الأخير بكل تأكيد.

ها هي الوقائع، وسأرويها بأكثر السبل إيجازا. فالرئيس، ضون أليخاندرو گلينكوى، كان مالكًاً عقاريًا من الشرق، وربَّ حقل على حدود البرازيل. وكان أبوه، الذي ورد من أبيرْدينْ، قد استقر على هذه القارة عند انتصاف القرن السابق، وحمل معه نحوا من مائة كتاب أستطيع الجزم بأنها الكتب الوحيدة التي قرأ ألينخادرو طيلة حياته (وإذا تحدثت عن هذه الكتب المتباينة، التي تصفحتها بيدي، فلأن في أحدها مصدر قصتي). لقد خلّف گلينكوى الأول، لدى وفاته، بنتًا وولدًا سيغدو فيما بعد رئيسا لنا. أما ابنته فتزوجت أحد أفراد عائلة إيگورين وغدت أمَّ فيرْمين. لقد داعب ضون أليخاندرو، وقتاً ما، حلم أن يصبح نائباً، بيد أن الزعماء السياسيين سدوا أبواب برلمان الأوروغواي في وجهه. واغتاظ الرجل فقرر إنشاء برلمان آخر ذي أمداء أشد اتساعا. يتذكر أنه قرأ في إحدى صفحات كَارْلاَيْل البركانية حالة أناكارسيس

كلوتْس، عابد ربة العقل، الذي ألقى، على رأس ثلاثة وستين أجنبيا، خطابا أمام جمعية باريس باعتباره «الناطق باسم الجنس البشري». واعتمادا على حافز هذا المثال، تصور ضون أليخاندرو مشروع خلق برلمان للعالم يمثل جميع الناس من كافة الأمم. وكان للاجتماعات التمهيدية مركز هو قاعة الحلوى، على أن يكون مقر جلسة الافتتاح، التي تم توقع عقدها خلال أربع سنوات، أملاك ضون أليخاندرو. لقد كان هذا الرجل، الذي لم يكن من أنصار أرتيگَاسْ شأنه شأن العديد من الأوروغوانيين، يحب بوينوس آيْريسْ، بيد أنه قرر أن يجتمع البرلمان في مسقط رأسه. والغريب أن الأجل الذي حُدِّد أصلاً وقع احترامه بدقة تقارب حد المعجزة.

في بادئ الأمر كنا نتقاضى مكافآتنا التي لم تكن هينةً، بيد ان الحرص الذي كان يحرقنا جعل فيرنَانْديثْ إيرَالاَ، وهو الفقير مثلي، يمتنع عن مس مكافأته هو فحذونا حذوه. وكان هذا التصرف مفيداً اذ سمح بتمييز الحبة عن زُوانها، فتناقص عدد البرلمانيين ولم يبق غير المخلصين. أما الوظيفة الوحيدة المجزية فكانت وظيفة السكرتيرة، نُورَا إيرْفْخُورد، التي لم تكن لها مصادر رزق أخرى، وكان عملها مضجراً. إن إنشاء منظمة تستوعب الأرض بأسرها لم يكن مشروعاً مبتذلاً، فقد أخذت الرسائل تذهب وتجيء وكذا البرقيات، ووصلت انخراطات من البيرو، والدانمارك والهندوستان. وأشار بوليڤي إلى أن بلاده لا تتوفر على أي ممر نحو البحر وأن هذا النقص المؤسف يجب أن يكون موضوع

إحدى المناقشات الأولى.

ولاحظ تْويرْل، الذي وُهِبَ ذكاءً لامعاً، بأن البرلمان يضع قبل كل شيء مشكلة من نسق فلسفي. ذلك أن التخطيط لإحداث جمعية تمثل كل الناس يعتبر أشبه بمحاولة لتحديد العدد المضبوط للأنماط الجامعة الأفلاطونية، وهو لغز شغل حيرة مفكري العالم بأسره، طيلة قرون. كما أوعز، دون اختيار مثال قصي، بأن ضون أليخاندرو يمكن أن يمثل الملاكين ولكنه يمكن أن يمثل أيضا أهل الشرق وكذا الأسلاف العظام والرجال ذوي اللحى الصهباء، وكل أولئك الذين يقتعدون مقعدا. وكانت نُورَا إيرفخورد نرويجية: فهل ستمثل السكرتيرات أم النرويجيات أم كل النساء الجميلات فقط؟ وهل يكفي مهندس واحد لتمثيل كافة المهندسين، بمن فيهم مهندسو زيلندة الجديدة؟

إثر ذلك، حسب ما أعتقد، تدخل فِيرْمِينْ. قال مقهقهاً:

-إن فيريٍّ يمثل الگرينگوس.

فنظر إليه ضون أليخاندرو بهيأة صارمة وقال دون حرج:

-السيد فيريٍّ يمثل هنا المهاجرين، الذين بفضل عملهم أخذ هذا البلد في النهوض.

ما كان لفيرمين إيگورين أن يلمحني إطلاقاً. فقد كان يمارس عجرفات متباينة: لكونه كان شرقيا، ولكونه كان مولَّدا، ولكونه كان قادراً على اجتذاب النساء، ولكونه إختار خياطا فاحش الثمن، ثم لكونه- وهذا ما سوف لن أدرك علته أبداً -بَشْكَنْشِيّاً بينما المعلوم أن

هؤلاء القوم، الموجودين على هامش التاريخ، لم يفعلوا شيئاً آخر إطلاقاً غير حلب الأبقار.

بيد أن واقعة من أكثر الوقائع تفاهة كرست بيننا البغضاء. فلدى انتهاء جلسة، اقترح علينا إيكورين الذهاب الى شارع خُونِين. لم يرقني المشروع، غير أني قبلت على مضض حتى لا أُعرض نفسي لسخرياته. ذهبنا الى هناك صحبة فيرنَانْديث إيرَالاَ. ولدى مغادرتنا الحان، صادفنا رجلاً شديد البأس، فدحرجه إِيكُورينْ وكان قد ثمل قليلا. منعنا الرجل من المرور قائلا:

-من أراد منكم الخروج فلا بد أن يمر بهذه المدية.

إنني اتذكر لمعان حدها في عتمة البهو. تراجع إيكورين خلفاً وهو مذعور، ولم أكن ساكن الروع بيد أن حقدي غطى على جزعي. أدخلت يدي في جيب سترتي كما لو كنت أنوى استخراج سلاح، وقلت بصوت ثابت:

- سوف نسوي هذه المسألة على قارعة الطريق.

فأجابني الغريب بصوت تغير كلية:

-هكذا أحب الرجال. كنت أريد اختباركم فحسب، أيها الصديق.

كان يضحك الآن بالغ البشاشة. أجبت:

- أما صفة الصديق فاتركها لحسابك أنت.

وخرجنا فدخل الرجل ذو المدية إلى الماخور. ولقد علمت، فيما

بعد، أن اسمه كان طَاپْيَا أو پَريديسْ، أو شيئاً من هذا القبيل، وأنه كان ذائع الصيت كمشاكس. وعندما أصبحنا على الرصيف ربت إيرالاَ، الذي احتفظ بهدوئه، على كتفي وصرح متحذلقا:

- لقد كان بيننا نحن الثلاثة فارس ملكي. أهلا دَارْ طَانْيَانْ!

ولم يغفر لي إيكُورينْ أبداً أني كنت شاهداً على جُبنه.

أشعر أنه الآن، والآن فقط، تبدأ قصتي. فالصفحات التي كتبتها قبلُ ما كان لها أن تصلح إلا لتحديد الظروف التي يستلزمها الحظ أو القدر لوقوع الحدث متعذر التصديق، الذي لعله حدث حياتي جميعها. كان ضون أليخاندرو دوماً مركز المسألة، بيد أننا شعرنا رويداً رويداً، وليس دونما اندهاش او ارتياع، بأن الرئيس الحقيقي كان تْويرْل. لقد كانت هذه الشخصية الفذة، ذات الشارب الوهاج، تداهن كْلِينْكُوي وحتى فِيرْمِينْ إيكورين لكن بطريقة مبالغ فيها بحيث يمكن الاعتقاد بأنه كان يسخر دون أن يورط كرامته. كان كلينكوي شديد الاعتزاز بثروته الطائلة، ولقد حدس تْويرْلْ أنه لكي يُدْفع الرجل إلى تبني مشروع ما، يكفي التأكيد على أن كلفته ستكون باهظة على نحو مفرط. لم يكن البرلمان في بداية الأمر، حسب ما يبدو، أكثر من مجرد اسم غامض، وكان تويرل يقترح إضافات متواصلة كان ضون أليخاندرو يقبلها باستمرار. كنا كمن في مركز دائرة تنمو، وتعظم دون توقف وهي تنأى.

لقد صرح تْويرْل، مثلاً، بأن البرلمان لا يمكن أن يستغني عن مكتبة تضم المراجع الأساسية، هكذا زودنا نييرينستاين، الذي كان يعمل في

مكتبة، بأطالس خُوسْتُوس پيرْتيسْ، وكذا بموسوعات متباينة وضخمة، بدءاً بال Historia naturalis لبْلِينْ و Speculum لبوڤيه ووصولاً الى المتاهات السارة (وأنا أقرأ هذه العبارات بصوت فيرنانديث إيرالا) للموسوعيين الفرنسيين النابهين، وال Britannica، وپييـــرلاَرُوسْ، وبْرُوكْهَاوْس، ولارْسن ومُونْطَانيرْ وسيمون. أتذكر أني ربتت باحترام على الأسفار الحريرية لموسوعة صينية بدت لي حروفها الدقيقة الرسوم أكثر غموضاً من بقع جلد فهد. لن أبادر إلى كشف النهايةالتي آلت إليها تلك الأسفار، والتي أنا بعيد حقاً عن الرثاء لها.

لقد أُخذ ضون أليخاندرو بصداقة أيرَالاَ وصداقتي، ربما لأننا كنا الوحيدين اللذين لا يلتمسان إطراءه، فدعانا الى قضاء بضعة أيام في عقاره كَاليدُونْيَا، حيث كان البناءون على قدم وساق. وبعد إبحار طويل الى عالية النهر، وعبور فوق عَامَة، وطأت أقدامنا الضفة الأخرى ذات صباح جميل. وكان علينا، بعد ذلك، أن نُمضي الليل في حانات بائسة وأن نفتح العديد من السياجات ونغلقها في كُوتْشَيا نيگْرَا. كنا نمضي على متن عربة، وقد بدا لي المشهد أكثر سعة وأشد عزلة من ذلك الذي كان يحيط بالمزرعة التي ولدت فيها.

مازلت أحتفظ في ذاكرتي بصورتين عن العقار: تلك التي تخيلتها وتلك التي بَصُرت بها عيناي في النهاية. فعلى نحو مُنَاف للعقل، صورت لنفسي، كما في الحلم، مزيجًا مستحيلاً من السهل السَّانْطَافِي و«قصر المياه الجارية»، أما الكاليدونيا فكانت مبنى طويلاً من

لبَن، له سقفٌ من قش ذو منحدرين، ورواقٌ مبلط. وبدا لي أنها شيدت لمقاومة القساوة وطول الزمن، فقد كان سُمك جدرانها الفظة حوالي متر، وكانت الأبواب ضيقة. ولم يفكر أحد في غرس شجرة، فكانت شمس الفجر وشمس الغروب ترشقان اشعتهما هناك. كانت زرائب العقار مُحَصَّبَةً، والماشية وفيرة، هزيلةً ومقرنة، وذيول الخيول المزوبعة تلامس الأرض. لقد عرفت لأول مرة الطعم الذي يكون للحم دابة نحرت قبل قليل. وقدمت لنا علب بسكويت، فأسرَّ إلي رئيس العملة، أياماً بعد ذلك، أنه لم يذق كسرة خبز طيلة حياته. وسأل إيرالا عن موقع المراحيض فأشار ضون أليخاندرو الى المنطقة بحركة واسعة. كانت ليلة مقمرة، وخرجت أتجول ففاجأت صديقي وهو يُفْرغُ نفسه تحت رقابة نعامة أمريكية.

كانت الحرارة، التي لم تتناقص مع حلول الليل، غير محتملة فأخذنا جميعا نطري النداوة. وكانت الغرف، الدانية السقوف، كثيرة، وقد بدت لي عارية من الأثاث. وأعطيت لنا غرفة تطل جهة الجنوب بها مفرشان وصوان وضع عليه طشتٌ وإبريق فضيان، وكانت الأرض من تراب مطرق.

في الغد، اكتشفت المكتبة وأسفار كَارْلاَيْل حيث بحثت عن الصفحات المكرسة للناطق باسم الجنس البشري، أنا كَارْسيس كلُوتْسْ، الذي أدين له بوجودي هناك ذلك الصباح، وسط تلك العزلة. وبعد تناول طعام الفطور، الذي كان نسخة طبق الأصل من الغذاء، قادنا

ضون أليخاندو لمشاهدة الأشغال الجارية. قطعنا فرسخا على ... رس، خلال الخلاء، وهناك وقع لإيرالاَ، الذي كان يخشى ركوب الخيل، حادث مؤسف فلاحظ رئيس العملة، ليس دون ابتسامة:

-إن المديني ليضع قدمه على الأرض بحذق ... غ.

أبصرنا البناء عن بعد. وكان عشرون رجلاً قد ... فعوا نوعا من مدرج مفكك. أتذكر سقالات ومراقي تسمح برؤية فراغات من السماء. لقد حاولت مرات عديدة الشروع في محادثة العمال، بيد أن محاولاتي باءت بالفشل. كانوا يدركون، على نحو من الأنحاء، أنهم مختلفون. وبغية التفاهم فيما بينهم كانوا يصطنعون إسپانية خناء، ملونة بالبرتغالية البرازيلية. ولاشك أن دماً هندياً وزنجياً كان يسري في عروقهم. كانوا أشداء، قصار القامة، مما جعلني أختبر، في كاليدونيا، إحساساً لم يخامرني إلى ذلك الحين وهو أنني رجل طويل. كانوا جميعاً على وجه التقريب يرتدون «التشيريپا»، وبعضهم سراويل منتفخة، ولم يكونوا يشبهون إلا يسيراً او بتاتاً شخصيات إيرنَانْديثْ أو رافَائيلْ أو بْليگَاضُو المتباكية. وتحت تأثير كحول أيام السبت، كانوا يتحولون بسهولة الى كائنات عنيفة. لم تكن بينهم امرأة واحدة، ولم أسمع قط عزف قيثار.

بيد أن ما أثار انتباهي أكثر من رجال هذا البلد الحدودي هو التغير شبه الشامل الذي طرأ على ضون أليخاندرو. ففي بْوينُوسْ آيْريسْ كان سيداً لطيفاً ومتزناً، أما في كاليدونيا فغدا رئيس عشيرة صارماً كأسلافه. صباح الأحد، كان يتلو الكتاب المقدس على العملة الذين لم يكونوا

يفقهون منه كلمة واحدة. وذات مساء أسرع رئيس هؤلاء، وهو رجل شاب ورث المهمة عن أبيه، ليقول لنا بأن فلاحاً وعاملاً يتشاجران بالمُدى. نهض ضون أليخاندرو دون ضيق كبير، وعندما وصل إلى المكان تخلى عن السلاح الذي يحمله عادة، وسلمه الى رئيس العملة، الذي بدا لي وهو يرتعش هلعاً، ثم اخترق طريقه بين المديتين الفولاذيتين فسمعت الأمر يصدر فوراً:

-ضعا مديتيكما، أيها الفتيَان.

ثم أضاف بنفس الصوت الهادىء:

-والآن لنتصافح ولنتصرف بلياقة. لا أريد مشاكل في هذا المكان.

انصاع الرجلان للأمر. ولقد علمت في الغد أن ضون أليخاندرو فصل رئيس العملة.

كنت أشعر أنني محاصر بالعزلة، وخشيت ألاَّ أعود إلى بْوينُوسْ آيْريسْ مطلقاً. لست أدري ما إذا كان فيرنَانْديثْ إيراَلاَ قد شاطرني هذا الخوف، بيد أنا تحدثنا كثيرا عن الأرجنتين وعما سنصنعه لدى عودتنا. كان يحلم متأسِّياً بأسود منقوشة على بوابة بشارع خُوخُوي، قريباً من ساحة أحد عشر، أو بأضواء دكان ما لا يُفلح في تحديد مكانه، أكثر مما يحلم بالأماكن التي يرتادها في العادة. لقد كنت دوماً فارساً جيداً فمارستُ عادة الانطلاق على الفرس وقطع المسافات الطويلة. ومازلت أتذكر الفرس العربي الذي كنت أسرجه عادة، والذي يجب أن يكون الآن قد هلك. وربما حدث ذات ظهيرة أو ذات مساء أن توغلت في

البرازيل، نظراً لأن الحدود لم تكن شيئاً آخر غير خط معلّم بصوى.

كنت قد تعلمت الكف عن عدّ الأيام عندما أخطرنا ضون أليخاندرو في نهاية يوم كسائر الأيام:

-حان وقت الانصراف الى النوم: سنغادر غداً في غضاضة الفجر.

وفيما كنا ننزل النهر، كنت أشعر بأنني بالغ السعادة الى درجة التفكير بحنو في كاليدونيا.

استأنفنا اجتماعاتنا المقررة أيام السبت. وفي الجلسة الأولى طلب تْوِيرْلْ الكلمة، فقال لنا، بلغته البلاغية المزخرفة، إن مكتبة برلمان العالم لا يكفي أن تقتصر على الكتب المراجع، وأن الكتب الكلاسيكية لجميع الأمم وجميع اللغات تشكل شهادة حقيقية لا يمكن أن نتجاهلها دون أن نتعرض للخطر. تمت المصادقة على التقرير فوراً. وقَبِل فيرنانديثْ إيرَالاَ والپروفيسور كْرُوثْ، أستاذ اللغة اللاتينية، مهمة وضع قائمة بالنصوص الضرورية. وكان تويرْلْ قد خاطب نْيِير ينْشتَايْن، من قبل، في شأن المشروع.

في ذلك الوقت، لم يكن هناك أرجنتيني واحد لم تكن يوطوپياه هي باريس. ولعل أفرغنا صبراً كان فيرْمِينْ إيگُورِينْ، يتلوهُ فيرنانديثْ إيرالاَ وإن لأسباب بالغة الاختلاف. فبالنسبة لشاعر «الرخامات» كانت باريس تعني ڤيرْلِينْ ولوكونْتْ دو ليزْلْ، أما بالنسبة لإيگُورِينْ فكانت استمراراً محسَناً لشارع خُونِينْ. إنني أرتاب في أنه اتفق مع تْويرْلْ: فخلال جلسة أخرى، استهل هذا الأخير مناقشةً حول اللغة التي

سيتكلمها البرلمانيون واستحضر ضرورة إرسال مندوبين، أحدهما الى لندن والآخر الى باريس، بهدف التزود بالوثائق. وبغية اصطناع عدم التحيز، اقترح تْويرلْ في البدء اسمي ثم، بعد تردد عابر، اقترح اسم صديقه إيگُورينْ. ومثلما يحدث دائماً، فقد وافق ضون أليخاندرو.

أعتقد أنني سبق أن كتبت بأن وْرينْ درَبَنِي، في مقابل دروسٍ لتعلم الإيطالية، على دراسة اللغة الإنجليزية اللامتناهية. تخلص، في حدود الممكن، من الاعراب والجمل التي اصطنعت خصيصاً للمبتدئين، ودخلنا مباشرةً عالمَ الشعر، الذي تستلزم اشكاله الاقتضاب. وكان أول اتصال لي باللغة التي ستؤثث حياتي يتمثل في الـ Requiem الباسل لستيڤنسُونْ، وبعد ذلك جاءت الملاحم التي كشفها پيرسِي للقرن الثامن عشرَ الجديرِ بالتبجيل. وقبل السفر الى لندن، حصل لي التجلي الباهر لسْوينبُورْنْ، الأمر الذي حدا بي الى الشك، شأن مرتكب الخطيئة، في سمو أشعار إيرَالاَ المنظومة على البحر الاسكندري.

وصلت إلى لندن في مستهل يناير من سنة اثنتين وتسعمائة وألف. أتذكر ملاطفة الثلج، الذي لم أكن رأيته من قبل، فتلذذتُ بذلك. ولحسن حظي، فإن السفر صحبة إيگورين لم يكن من نصيبي. عثرت على غرفة في فندق متواضع يقع خلف المتحف البريطاني الذي كنت، صباح مساء، أرتاد مكتبته بحثا عن لغة جديرة ببرلمان العالم. لم أهمل اللغات العالمية، ولذا تصديت للإسپيرانتو- التي تعتبرها «الشهرية العاطفية» لغة«عادلة، بسيطة واقتصادية»-و القُولاپوك التي تطمح الى

استغلال كل الإمكانات اللسانية عن طريق إعراب الأفعال وتصريف المصادر. وازنت بين الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لبعث اللاتينية، الذي لم يتوقف الحنين اليه خلال القرون، كما تريثت في دراسة لغة جون ويلْكينْز التحليلية، حيث يوجد معنى الكلمة في الحروف التي تؤلفها. وتحت القبة السامقة لقاعة القراءة التقيتُ بيَاتْريس.

إن هذه القصة هي التاريخ العام لبرلمان العالم، وليست تاريخي أنا، أليخاندرو فيرّي. بيد أن التاريخ الأول يشمل الثاني، مثلما يشمل كل التواريخ الأخرى. كانت بيَاتْريس طويلةً ورشيقةً، ذات ملامح صافية وشعر أصهب كان يمكن أنَ يذكرني -وإنْ لم يفعل- بشعر الرجل المتقوس، تْويرلْ. لم تكن قد بلغت العشرين، وكانت قد غادرت إحدى مقاطعات الشمال لتصير طالبة آداب بالجامعة. وعلى غراري، كانت متواضعة الأصل. لقد كان الانتماء الى أصول إيطالية، في بْوينُوسْ آيْريسْ، أمرا مشيناً، أما في لندن فقد اكتشفت أن هذه الوضعية كانت، في نظر الكثيرين، تتوفر على صفة رومانتيكية. كانت بضع ظهيرات كافية كي نغدو عاشقين. طلبتُ أن تتزوجني غير أن بياتريس فروست، شأنها شأن نورا إيرفْخُورْد، كانت متشيعةً للنِّحلة التي دعا اليها إبْسَنْ، فلم تكن تريد الاقتران بأحد. هكذا ولدت في فمها الكلمة التي لم أجرؤ على النطق بها. آه أيتها الليالي، آه أيتها الظلمات الدافئة التي تقاسمناها، آه أيها الحب الذي ينشر مَدَّاته في الظل مثل نهر سري. آه من لحظة النشوة تلك حيث يكون كل منا ذاته والآخرفي نفس الوقت. آه من

براءة الوجد وطهارته. آه من الوحدة التي نُضيعُ فيها ذواتنا لكي نَضيع في الحلم بعد ذلك. آه من أنوار الفجر الأولى وأنا أتأملها.

على حدودالبرازيل اللاذعة كنت ضحية الحنين إلى الوطن، بيد أن الأمر، في متاهة لندن الحمراء التي وهبتني الكثير، كان بخلاف ذلك. ورغم كل المبررات التي ابتكرتُ لتأجيل السفر، فإنه كان يجب علي أن أعود في نهاية السنة، لذا قضينا أعياد الميلاد معاً. لقد وعدتُ بيَاَتْريسْ أن ضون أليخاندرو سوف يوجّه اليها الدعوة للالتحاق بالبرلمان، فأَجابتني، على نحو مبهم، بأنها تودُّ زيارة نصف الكرة الجنوبي وأن أحد أقاربها، وهو طبيب أسنان، قد استقرَّ بطَاسْمَانْيَا. لم ترد رؤية السفينة، فالودَاعَاتُ كانت، حسب رأيها، من قبيل المبالغة، أعراس حزن خرقاء، وكانت هي تحتقر المبالغات. هكذا تلفظنا بعبارات الوداع في المكتبة التي كانت مكان لقائنا في الشتاء الماضي. إنني رجل جبان: ذلك أنني لم أُعطها عنواني حتى أُجَنِّبَ نفسي قلق انتظار رسائلها.

لقد لاحظت أن الأسفار تكون أقل طولاً في العودة منها في الذهاب، بيد أن عبور المحيط الأطلسي، وأنا مثقل بالذكريات والمشاغل، بدا لي مفرط الطول. ولم يكن هناك ما يثير ألمي قدر التصور بأن بياتريس، بموازاةحياتي، ستعيش حياتها دقيقة بدقيقة وليلة تلو أخرى. كتبت إليها رسالة عديدة الصفحات، ثم مزقتها لدى مغادرتي لمونطيڤيديو. وصلت الى بلادي ذات خميس، وكان إيرَالاَ بانتظاري على الرصيف. التحقت بمسكني القديم بشارع تشيلي، ثم قضينا النهار

ونهار الغد في الثرثرة والتجول: كان ينبغي علي أن أستعيد بْوينُوسْ آيْريس. وكان عزاءً لي أن أعلم أنَّ فيرْمينْ إيگُورينْ كان لا يزال بعدُ في باريس، ذلك أن عودتي قبل رجوعه ستخفف، على نحو ما، من وقع طول غيابي.

كان إيرَالا خامل الهمَّة، فقد بذَّر فيرْمين في أوروبا مبالغ طائلة ولم يراع إطلاقاً الأمرَ الذي صدر له، مراراً، بالعودة حينا. و ذلك ما كان متوقعاً منه. غير أن أنباء أخرى زادت من قلقي: فرغم معارضة إيرَالاَ وكْرُوثْ، استند تْويرْلْ الى رأي پْلينْ الشاب القائل بأن الكتاب مهما كان سيئا لابد أن يتضمن فائدة ما، فاقترح، دون تمييز، شراء سلاسل جريدة LaPrensa (الصحافة) وثلاث آلاف وأربعمائة نسخة من «ضون كيخوطي»، في أحجام مختلفة، ومراسلات بَالميسْ، وأطروحات جامعية، وكتب محاسبات، ونشرات وبرامج مسرحية، وقال بأنَّ كل ذلك شهادات. سانده نيريتْسْتَايْن، و«بعد ثلاثة أسبات عاصفة» وافق ضون أليخاندرو على التوصية. استقالت نورا إيرفْخُورْدْ من وظيفتها كسكرتيرة، وعُوِّضت بعضو جديد، يدعى كارلينسكي، كان رجل تْويرْلْ. تتراكم الآن رُزَمٌ هائلة، دون فهارس ولا جذاذات، في الغرف السفلى وفي قبو منزل ضون أليخاندرو الشاسع. وفي مستهل شهر يوليه قضى إيرَالاَ أسبوعاً في كَاليدُونْيَا، وكان البناءون قد توقفوا عن أعمالهم. وعندما سئل رئيس العملة شرح بأن ربَّ العمل قرر ذلك، مع أن الوقت الذي تبقى لإنجاز المهمة لا يتعدى بضعة أيام.

كنت قد كتبت في لندن تقريراً لافائدة من ذكره هنا، وفي يوم الجمعة، ذهبت لتحية ضون أليخاندرو وتسليمه نص التقرير. وكان برفقتي فيرنَانْديثْ إيرَالاَ. كان الوقت مساءً وريح الپامپا (السهل) تتسرب إلى البيت. وكانت عربة صغيرة تجرها ثلاثة جياد قد توقفت أمام البوابة المطلة على شارع ألْسينَا. أتذكر رجالاً يرزحون تحت أثقال يفرغونها في الفناء الداخلي، وتَوِيرلْ يصدر الأوامر إليهم في هيأة جبار متسلط. وكان هناك أيضاً، كما لو أن حدسا نبههم الى المجيء، نورا إيرفْخُورْدْ ونيرينستاين وكرُوثْ ودُونَالْدْ وَرِينْ وبرلماني أو اثنان علاوة على ذلك. ضمتني نورا إليها وقبلتني، فذكرتني تلك الضمة وتلك القبلة بغيرهما. أما الزنجي، الطيب والسعيد، فقد قبل يدي.

وفُتح في إحدى الغرف الباب القلاَّبُ المربع الذي يؤدي الى القبو، وكانت أدراجٌ من حديد تضيع في العتمة. فجأة سمعنا وقع خطوات. وعلمت، قبل أن أرى، أن الداخل كان ضون أليخاندرو. لقد وصل كما لو كان على عجل. كان صوته قد تغيَّر، فلم يعد صوتَ الرجل الرزين الذي يترأس اجتماعاتنا ليوم السبت، ولا صوت السيد الإقطاعي الذي يضع حداً لمبارزة بالمدى وينشر كلمة الربِّ بين الگاوتْشُوسْ، وإنما هو صوت يدفع الى التفكير في هذه الكلمة ذاتها.

ودون أن ينظر الى أحد، أمر:

-فليُخْرَجْ كل ما تراكم هناك في الأسفل، ولا يبقى كتابٌ واحدٌ في القبو.

تطلب ذلك منا ساعة على التقريب. وفي الفناء، ذي الأرض التَّربَة، راكمنا عمودا يتجاوز الأطولَ منا قامةً. كنا نذهب جميعاً ونجيء، أما الشخص الوحيد الذي لم يتحرك فكان ضون أليخَانْدرُو. ثم صدر الأمر التالي:

-والآن، فلنُضْرم النار في كل هذا الركام.

كان تويرْلْ ممتقع الوجه. وتمكن نيرينْسْتَاين من أن ينبس قائلاً:

-لا يمكن لبرلمان العالم أن يستغني عن هذه المراجع الثمينة التي انتقيتها ببالغ الحرص.

فقال ضون أليخاندو:

-برلمان العالم؟

وأصدر ضحكة تهكم، هو الذي لم أسمعه أبداً يضحك.

هناك لذة غامضة في فعل الاتلاف: فرقعت ألسنة اللهب، لامعةً، وازدحمنا نحن بمحاذاة الحيطان أو داخل الغرف. ولم يبق في الفناء سوى الليل والرماد ورائحة الحريق. أتذكر بضع صفحات هائمة، لم تمسسها النار، ملقاة بيضاء على الأرض. وأعلنت نُورَا إيرفْخُورْدْ، التي كانت تُكنُّ لضون أليخَانْدرُو ذلك الحب الذي تكنه النساء الشابات في العادة للرجال المسنين- أعلنت دون أن تفهم:

-إن ضون أليخاندرو يدرك جيداً مغزى ما يصنع.

ولم يترك إيرَالاَ، المخلص للأدب، فرصة صوغ عبارة تضيع، فقال:

-في كل بضعة قرون، لابد من إحراق مكتبة الإسكندرية.

إثر ذلك جاءنا السرّ:

-تأخرت أربع سنوات لأفهم ما أقول لكم الآن. إن المهمة التي تعهدناها بالغة السعة بحيث تشمل العالم بأسره، وذلك ما أدركه اللحظة. فلا يتعلق الأمر بجماعة صغيرة من مجيدي الكلام يخطبون بإطناب تحت سقيفة عقار ضائع. لقد بدأ برلمان العالم مع لحظات العالم الأولى، وسيبقى عندما نصير حفنة من تراب. فلا يوجد مكان لا وجود له فيه. البرلمان هو الكتب التي أحرقنا، وهو الكالدونيون الذين أنزلوا الهزيمة بفيالق القياصرة، والبرلمان هو أيوب فوق مزبلته، والمسيح على صليبه، والبرلمان هو ذلك الولد غير النافع الذي يبدد ثروتي برفقة مومسات.

ودون أن أتمالك نفسي، قاطعته:

-أنا أيضا أذنبتُ، ضون أليخاندرو. فلقد كنت أنهيت تقريري، الذي أحضرته إليك، وتأخرت في إنجلترا على نفقتك من أجل عشق امرأة.

فواصل ضون أليخاندرو:

-افترضت ذلك يافيرّي. البرلمان هو ثيراني، البرلمان هو الثيران التي بِعْت وفراسخ الأرض التي لم أعد أملكها.

وارتفع صوتٌ ذاهل، هو صوتَ تْوِيرْلْ:

-سوف لن تقول لنا بأنك بعت كاليدونيا؟

-بلى، لقد بعتُها فلم يبق لدي بعدُ شبر واحد من الأرض. بيد أن خسارتي لا تثير حزني، لأنني الآن فهمت. قد لا نلتقي بعدُ، فالبرلمان لا يعيّننا نحن بالضبط، غير أننا في هذه الأمسية سنذهب جميعاً للنظر الى البرلمان.

كان منتشياً بانتصاره، وسرعان ما غمرتنا صلابة روحه وإيمانُه. ولم يخمن أحدٌ، في أية لحظة، أن الرجل يمكن أن يكون مجنوناً.

امتطينا في الساحة متن عربةٍ مكشوفة. اتخذت مكاني بجوار الحوذي، فأمر ضون أليخاندرو:

-سنطوفٌ بالمدينة، أيها السائق. خذنا حيثما تشاء.

ولم يكف الرجل الزنجي، الذي كان واقفاً فوق موطىء، عن الابتسام. وسوف لن أعلم مطلقاً ما إذا كان قد فَهِمَ مغزى ما حصل.

إن الكلمات رموزٌ تسلِّم بوجود ذاكرة متقاسمة. وليست الذاكرة التي أحاول تأريخها هنا إلا ذاكرتي، أما الذين قاسموني ذكرياتي فقد قضوا نحبهم. يتخيل المتصوفة وردةً، أو قُبلة، أو طائراً هو جماع كل الطيور، أو شمساً هي في نفس الوقت كافة الكواكب والشمس، أو دنَّ خمر، أو بستاناً، أو عملية نكاح. غير أن مجازاً من هذه المجازات ما كان ليصلح لي لاستحضار ليلة الابتهاج الطويلة التي تركتنا، منهكين وسعداء، عند مشارف الفجر. لم نكن نتبادل الكلام إلا لماماً، بينما العجلات والحوافر يرنُّ صداها على الأحجار. وقبيل الفجر، بمحاذاة ماء معتم ووضيع قد يكون ماء الماضُونَا دُو أو ماء الرِّيَاتْشويلُو، أنشد صوتٌ

نُورا إيرفخُوردْ الصادح أنشودة پَاتْريكْ سپْينْسْ فكان ضون أليخاندرو يُردِّد، بصوت هامس، بيتاً منها أو بيتين نشازاً. غير أن الكلمات الإنجليزية لم تبتعث، بالنسبة لي، صورة بِيَاتْريسْ. سمعت تْويرْلْ يهمس لصق ظهري:

- أردت فعل الشر، ففعلت الخير.

لقد تبقت أشياء مما لمحناه- جدار ريكُوليطَا المحمر، وجدار السجن الأصفر، ورجلان يرقصان في مفترق طريقين، وفناءٌ ذو أرض مبلطة بالأبيض والأسود قد أغلق بسياج مُشَبَّك، وحاجزا السكة الحديد، ومنزلي، وسوقٌ، والليل البليل المتعذر السَّبر- غير أن واحداً من هذه الانطباعات المنفلتة، التي لعلها غيرُ ما لمحناه، ما كان له من أهمية تُذكر. إنما المهم هو كوني شعرت أن مخططنا، الذي سخرنا منه أكثر من مرة، كان موجوداً في الواقع وعلى نحو سري، وأنه كان الكونَ بأسره بما في ذلك نحن. لقد جاهدت في البحث سنوات، ودون أمل كبير، عن طعم تلك الليلة: اعتقدت أحياناً أنني بالغُهُ من خلال الموسيقى، أو الحب، أو الذاكرة المتقلبة، بيد أني لم أُفْلح، ما لم يكن ذلك قد حصل ذات صباح، وفيما يرى النائم. وكانت صبيحة السبت وشيكة، عندما أقسمنا اليمين ألا نكشف شيئاً لأي كان.

لم أر أحداً بعد ذلك عدا إيرالا. لكننا لم نعلِّق قط على هذه الحكاية، ذلك أن أبسط كلمة نقولها كانت ستغدو أشبه بحنث. في سنة 1914 توفي ضون أليخاندرو گلينكوي، ودفن بمونطيڤيديو. وكان إيرَالاَ

قد قضى نَحبه السنة التي قبلها.

التقيت نيرينشْتاين ذات مرة بشارع ليما، فتظاهرنا بأن أحدنا لا يُبصر الآخر.

الموت و البوصلة

من بين المعضلات العديدة التي دربت فطنة لُونْرُوتْ الجسورة، لم يكن هناك ما هو أغرب- بل ما هو أشد غرابة- من سلسلة الاغتيالات المنتظمة التي بلغت منتهاها في عقار «تْريسْتْ لُورْوَا»، وسط رائحة أشجار الكالبتوس اللامتناهية. صحيح أن إيريكْ لُونْرُوتْ لم يوفق في منع حدوث الجريمة الأخيرة، لكنه توقعها ولا ريب. إنه لم يتنبأ أيضاً بهوية قاتل يَارْمُولِينْسْكي الشقي، بيد أنه تصور الشكل السري للسلسلة الكئيبة ومدى مساهمة ريدْ سْكَارْلاَش، الملقب بالمتأنق، فيها. لقد كان هذا

المجرم (مثل غيره) أقسم بشرفه أن يقتل لُونْرُوتْ، إلا أن هذا الأخير لم يترك للخوف سبيلا إلى نفسه. كان يعتقد أنه محضُ باحث عن العلل والأسباب، من قبيل أوغيستْ ديپَانْ، وإن كان يتميز عنه ببعض خصائص المغامر، وربما المقامر أيضاً.

حدثت الجريمة الأولى ب«الأوطيلْ دي نُورْ»- ذلك الشائه السامق الذي يشرفُ على النهر الملوثة مياهه بلون الصحراء. ففي اليوم الثالث من شهر ديسمبر، حل بهذه الصومعة (التي تؤلف، بصورة ملحوظة، بين بياض العيادة الكريه، والانقسام المرقم الذي يسم السجن، والمظهر العام لبيت دعارة) الدكتور مارسيل يَارْمُولينْسْكي، مندوب بُودُولُوسْكْ إلى المؤتمر التلمودي الثالث. كان رجلاً ذا لحية رمادية، وعينين رماديتين. وسوف لن نعلم قط ما إذا كان «الأوطيلْ دي نُورْ» قد راقه، فلعله قبله بالاستسلام المعهود الذي مكنه من تحمل سنوات الحرب الثلاث في الكارپَاتْ، وثلاثة آلاف سنة من القهر والاستئصال. خُصصت له غرفة نوم في الطابق حرف R، إزاء «السّويتْ» الذي يشغله، بأبهة لاتخفى، والي ربع الجليل، فتناول عشاءه مؤجلاً إلى اليوم التالي عملية اكتشاف المدينة المجهولة. رتب في «الپْلاكَارْ» كتبه العديدة، وملابسه القليلة، ثم أطفأ النور قبيل منتصف الليل (وذلك حسب ما صرح به «شُوفُّورْ» والي الربع، الذي كان ينام في الحجرة المجاورة). وفي اليوم الرابع من ديسمبر، على الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق، طلب مكالمته بالهاتف أحد محرري صحيفة الـ«Yiddisch Zeitung»، لكن الدكتور يارمولينسكي

لم يُجبْ. وعُثر عليه في حجرته مسودَّ السحنة قليلاً، تحت دثار من زي قديم وهو يكاد يكون عارياً. لقد استلقى غير بعيد من الباب التي تنفتح على الممر، وكانت طعنة خنجر عميقة قد نفذت الى صدره. بعد ذلك بساعتين، وفي نفس الحجرة، كان عميد الشرطة تْريفيرَانُوسْ صحبة لُونْرُوتْ يناقشان النازلة بهدوء، وسط صخب الصحفيين والمصورين ورجال الدرك. كان تْريفيرَانُوسْ يقول وهو يليّن سيجاراً متغطرساً:

- لا داعي للبحث عن الشمس في وضح النهار. فنحن نعرف جميعا أن والي ربع الجليل يملك أجمل اليواقيت الزرقاء في العالم. وبغية سرقتها، تسرب شخص إلى هذا المكان خطأً. واستيقظ ياروملينسكي فوجد اللصُّ نفسه مضطراً الى قتله. ما رأيك فيما أقول؟

أجاب لُونْرُوتْ:

- ذاك ممكن، ولكنه غير ذو أهمية. ستجيبني بأن الواقع ليس من الضروري بتاتاً أن يكون مهماً، وسأرد عليك بأن الواقع يمكن أن يتجاوز عن هذا الإلزام، أما الفرضية فلا. وفي الفرضية التي ارتجلتَ، تتدخل الصدفة بكثافة. لقد مات رجل ربّي. وأنا أُفضل تفسيراً محض ربّي على محَن متخيَّلة يتعرض لها سارق متوهم.

ردّ تْريفيرَانُوسْ بمزاج ممتعض:

-إن التفسيرات الربية لا تهمني، وما يهمني هو إلقاء القبض على الرجل الذي طعن هذا النكرة.

فصحح لُونْرُوتْ:

-ليس نكرة بالقدر الذي تظن. فها هي مؤلفاته الكاملة.

وأشار بداخل «البِلاكار» إلى صف من مجلدات كبيرة: كتاب «دفاع عن القبّالية» و«فحص فلسفة روبيرفلود»، وترجمة حرفية ل«سفر يزيراه»، و«سيرة بَعْل شم» و«تاريخ الطائفة الهسيدية»، ومونوغرافية (وُضعت بالألمانية) عن التيتراغراماتون، وأخرى عن المصطلحات الإلهية لأسفار موسى الخمسة. نظر إليها عميد الشرطة بخوف، وقد عافتها نفسه تقريباً. ثم شرع في الضحك وهو يعقب:

- إنني مسيحي متواضع. فخذ هذه المجلدات السمجة إذا شئت، لأنه ليس لدي وقتٌ أهدره في أباطيلَ يهودية.

همس لُونْرُوتْ:

-لربما كانت هذه الجريمة تنتمي إلى تاريخ الأباطيل اليهودية.

تجرأ محرر جريدة ال «Yiddische Zeitung»، وكان حاسر النظر، ملحداً وبالغَ الخجل- فأكمل الجملة:

-شأن المسيحية.

لم يجبه أحد. وكان بعض رجال الشرطة قد عثر، في الآلة الراقنة الصغيرة، على ورقة كُتبت عليها هذه الجملة المبتورة: «لقد تم النطق بالحرف الأول من الإسم».

امتنع لُونْروتْ عن الابتسام. وبما أنه أصبح فجأة من هواة الكتب ومتخصصا في العبرانيات فقد أمر بصرِّ أسفار الرجل الذي هلك ثم حملها إلى شقته حيث عكف على دراستها، لا يبالي بالتحقيق الذي تقوم

به الشرطة. هكذا كشف له مجلد ثُماني كبير تعاليمَ «إسرائيل بعل شِمْ طوبه» مؤسس طائفة الأتقياء، وكشف له مجلد آخر فضائل وأهوال التِّيتْرَاغْرَامَاتُون، بمعنى اسم اللّه الذي لا يُنطق، وثالثٌ الأطروحة القائلة بأن لله اسماً سرياً اختصرت فيه (مثلما في السطح البلوري الذي ينسبه الفرس إلى الإسكندر المقدوني) صفته التاسعة، وهي الخلود- أي المعرفة الآنية لكل الأمورالتي ستكون، أو هي كائنة، أو كانت في الكون. إن الموروث الديني يعدد تسعة وتسعين اسماً من أسماء اللّه، وينسب علماءالعبرانيات هذا العدد غير التام إلى الخوف السحري من الأرقام الأزواج، بينما يعتبر الهسيديون أن هذه الفجوة إنما تشير إلى الإسم المائة: أي الاسم المطلق.

بعد ذلك بأيام قليلة، انشغل لُونْروتْ عن أبحاثه المتبحرة بظهور محرر الـ «Yiddisch Zeitung» الذي كان يتوق إلى الحديث عن عملية الاغتيال، وكان لُونْروتْ يفضل الحديث عن أسماء الله المختلفة، فصرح الصحفي، في مقال شغل ثلاثة أعمدة، بأن المحقق إريكْ لُونْروتْ عكف على دراسة أسماء اللّه للعثور على اسم القاتل. وبما أن لُونْرُوتْ كان متعوداً على تبسيطات الصحافة، فإنه لم يغتظ من ذلك. وعمل أحد أصحاب الدكاكين، الذين اكتشفوا أن أي رجل يمكن أن ينصاع لشراء أي كتاب، على عرض طبعة شعبية من كتاب «تاريخ طائفة الهسيديين».

وحدثت الجريمة الثانية ليلة الثالث من يناير، في أكثر الأماكن وحشة وأشدها فراغاً من ضواحي غرب المدينة. ففي الفجر رأى أحد رجال

الدرك الذين كانوا يراقبون من فوق أفراسهم هذه الأماكن المعزولة- رأى على عتبة دكان قديم يملكه بائع أصباغ، رجلاً ممدداً، ملتفاً في معطف بدون أكمام. وكان الوجه القاسي شبة مقنّع بالدم، بينما خرقت الصدر طعنة خنجر عميقةٌ. وكانت على الحائط، فوق المعينات الصفراء والحمراء، كلمات كتبت بالطباشير فتهجاها الدركي.... في تلك العشية، كان تْرِيفيرَانُوس ولُونْرُوتْ يتوجهان إلى مسرح الجريمة النائي، فكانت المدينة على يسار السيارة ويمينها تتفسخ، وقبة السماء تتنامى، والمنازل تفقد أهميتها لحساب فران آجر أو شجرة حَوْر. ووصلا الى غاية سفرهما التعس: وهو زقاق قصي ذو حيطان وردية من لَبِن تبدو وكأنها تعكس، على نحو ما، غروب الشمس الهائل. كان التعرف على هوية القتيل قد تم فإذا هو دَانْيَالْ سِيمُونْ أثيبيدُو، الرجل المعروف في ضواحي الشمال العتيقة، الذي ارتقى من سائق عربة شحن إلى مقام مدعي الشجاعة الانتخابية، لكي ينحط إلى حضيض لص وحتى وضاعة واش (ولقد بدا لهما أسلوب موته الفذ ملائماً: إذ كان أثيبيدُو آخر ممثل لجيل قطاع الطرق الذين كانوا يجيدون استعمال المدية ولم يكن لهم إلى استعمال المسدس من سبيل). أما الكلمات التي كتبت بالطباشير فكانت التالية:

«لقد تم النطق بالحرف الثاني من الاسم».

وحدثت الجريمة الثالثة ليلة الثالث من فبراير. فقبل الساعة الواحدة بقليل، رن جرس الهاتف في مكتب عميد الشرطة تْرِيفيرَانُوسْ. وتحدث

رجل ذو صوت حلقي يحتاط لنفسه احتياطات جشعة، فقال بأنه گينثبيرنْ (أو گينثبورج) وأنه يستطيع، لقاء مكافأة معقولة، التبليغ عن وقائع ذبح كل من أثيبيدُو ويارْمُولينسْكي. وغطى على صوت الواشي نشاز صفارات ومزامير فانقطعت المكالمة. ودون إنكار إمكانية أن يكون الأمر مزحة (إذ كان الوقت، في نهاية المطاف، أوان كرنڤال) فقد اكتشف تْريفيرانُوسْ أن المكالمة كانت صادرة عن ملهى ليڤرپولْ هَاوْسْ الواقع بشارع طولون- ذلك الشارع الأجاج الذي تتجاور فيه حجرة تكبير الصور المظلمةُ والمحلبة، بيوتُ الدعارة ودكاكينُ تجار الأناجيل. تحدث تْريفيرانُوسْ إلى صاحب الملهى فأخبره هذا (وهو مجرم إيرلندي قديم، ارهقته الاستقامة ومحتْ أثره تقريباً- اسمه بْلاكْ فينيگَانْ) بأن آخر من استعمل هاتفه هو گْريفْيوسْ، أحد المكترين، وقد خرج للتو صحبة بعض أصدقائه. توجه تْريفيرانُوسْ مباشرة الى ليڤرْپولْ هَاوْسْ فأبلغه صاحب الملهى بما يلي: قبل ثمانية أيام اكترى گْريفْيوسْ حجرة فوق الحان. لقد كان رجلاً مشحوذاً ذا لحية رمادية سديمية، ويرتدي السواد في حالة مزرية. طلب منه فينيگَانْ (الذي كان يخصص تلك الحجرة لمآرب خمنها تْريفيرانُوسْ) أجرةَ كراء مبالغاً فيها ولا ريب، فدفع گْريفْيوسْ المبلغ دون إبطاء. لم يكن يبارح الحجرة إلا لماماً: اذ كان يتعشى فيها كما يتناول فطوره، ولم يكن وجهه مألوفاً في الحان إلا بالكاد. وفي تلك الليلة نزل ليتلفن في مكتب فينيگَانْ. توقفت عربة مقفلة أمام الملهى لكن السائق -الذي يتذكر بعض الزبائن بأنه كان يضع على وجهه قناع دب-

لم يغادر مقعد القيادة. نزل من العربة المقفلة مُهَرَّجان، وكانا قصيري القامة، فلم يتردد أحد في إدراك أنهما كانا في حالة سكر مفرط. اقتحما مكتب فينيگَانْ وسط ضجيج حاد من ثغاء مزامير، وعانقا گْرِيفُّيوسْ الذي بدا وكأنه تعرف عليهما، وإن كان رد عليهما التحية ببرود. لقد تبادل ثلاثتهم كلمات باليدِّية: هو بصوته الخفيض والحلقي، وهما بصوتيهما النشازين، الحادين - ثم صعدوا إلى الحجرة العليا. وبعد ربع ساعة، نزل الثلاثة، وقد بلغ بهم السرور مبلغه، فبدا گْرِيفُّيوسْ وهو يترنح ثملاً مثل رفيقيه المهرجين المقنعين، وكان يسير بينهما ضخماً ومتعرجاً. (تذكرتْ إحدى نساء الحان المعينات الصفراء والحمراء و الخضراء). تعثر مرتين، فأقامه المهرجان مرتين، ثم صعدوا إلى العربة المقفلة قبل أن يتلاشى أثرهم وهم يتخذون وجهة حوض السفن المجاور، ذي الماء المربع. وفيما كان يضع رجله على عتبة العربة رسم آخر المهرجين على أحد الأعمدة بمدخل الملهى هيأةً فاحشةً كما خط جملة.

نظر تْرِيفيرَانُوسْ إلى الجملة. كانت شبه متوقعة، وتقول:

«تم النطق بآخر حروف الاسم»

إثر ذلك قام بفحص حجرة گْرِيفُّيوسْ- كِينْتْبِيرْكْ الضئيلة فلاحظ على الأرض نجمةَ دم مفاجئة، وفي الزوايا أعقابَ سجائر من نوع هنغاري، كما وجد في الصوان كتاباً باللاتينية- هو: Philologus (1739) Hebraeo - graecus، لمؤلفه ليوسدن- به حواشي مخطوطة عديدة. نظر إليه تْرِيفيرَانُوسْ بازدراء ثم أمر بالبحث عن لُونْرُوتْ. ودون أن ينزع

قبعته، شرع هذا الأخير في القراءة بينما راح عميد الشرطة يستنطق الشهود، المتعارضة أقوالهم، حول الاختطاف المحتمل. خرجا حوالي الساعة الرابعة، وحينما كانا يدوسان حلزونيات الفجر الميتة في شارع طُولُونْ المتعرج قال تْرِيفِيرَانُوسْ:

-وإذا كانت قصة هذه الليلة مجرد ظل خادع؟

فابتسم لُونْرُوتْ وتلى عليه بجدية بالغة فقرةً- مشدداً عليها- من الإنشاء الثالث والثلاثين من كتاب الـ «Philologus»:

Dies Judaeorum incipit a solis occasu usque ad solis occassum diei sequentis

مضيفا: «وهو ما يعني أن النهار العبري يبدأ بمغيب الشمس ويتواصل إلى المغيب التالي للشمس».

وحاول رفيقه أن يسخر:

- هل هذه هي أثمن معلومة اقتنصتها الليلة؟

-كلا. إنما الأثمن كلمة قالها كينشبيرگ.

لم تغفل صحف المساء التعليق على هذه الاختفاءات المتعاقبة فقد قابلتها صحيفة «La cruz de la espada» بالانضباط العجيب للمؤتمر النسكي الأخير ونظامه، وأدان إِرْنِسْتْ بَالاَسْتْ، في صحيفة «EL Mar-titr»، «البطء اللامحتمل لاستئصال سري قنوع، كان بحاجة إلى ثلاثة أشهر للقضاء على ثلاثة يهود». ورفضت صحيفة الـ«Yiddisch Zeitung» الفرضية الفظيعة القائلة بوجود مؤامرة لا سامية «مع أن العديد من ذوي العقول الثاقبة لا يرتضون حلاً آخر للسر المثلث الأطراف». وأقسم أشهر

مستعملي المسدس في الجنوب، وهو المتأنق ريدْ سْكَارلاَشْ، بأن دائرته لا تعرف أبداً جرائم من هذا القبيل واتهم عميدَ الشرطة فْرانْزْ تْرِيفيرَانُوسْ بالإهمال المتواطئ.

ليلة الفاتح من شهر مارس، تلقى هذا الأخير ظرفاً هائلاً مختوماً، فتحه فإذا به نص رسالة موقعة باسم «باروخ سبينوزا» وخارطةٌ مفصلة للمدينة، من الواضح أنها انتُزعت من دليل Baedecker السياحي. تتنبأ الرسالة بعدم وقوع جريمة رابعة يوم 3 مارس المقبل، لأن دكان بائع الأصباغ في الغرب، وملهى شارع طُولُونْ و «الأوطيل دي نُورْ» تشكل «الزوايا المكتملة لمثلث صوفي متساوي الأضلاع»، بينما تُبرز الخارطة، بالحبر الأحمر، تناسق ذلك المثلث. قرأ تْريفيرَانُوسْ باستسلام هذا البيان البالغ الهندسية ثم بعث الرسالة والخارطة إلى لُونْروتْ الذي يستحق، ولا غرو، مثل هذه الترهات.

فحصها لُونْروتْ: لقد كانت الأماكن الثلاثة فعلاً متساوية المسافات. تماثلٌ في التوقيت (3 ديسمبر، 3 يناير، 3 فبراير)، وتناظر في المكان، وأيضا ... . شعر، فجأة، بأنه أوشك أن يفك اللغز الخفي فتكفل فرجارٌ وبوصلة بالتأكيد على صواب حدسه المباغت. ابتسم وهو يتلفظ بكلمة التِّيتْرَاغْرامَاتُونْ (التي لم يتعلمها إلا مؤخراً) ثم تلفن إلى عميد الشرطة قائلاً:

-شكراً على المثلث المتساوي الأضلاع الذي أرسلته إليَّ مساء أمس، فلقد مكنني من حل المشكل. غداً، الجمعة، سيكون القتلة بداخل

السجن. بإمكاننا أن نطمئن الآن.

-إذن فهم لا يخططون لجريمة رابعة؟

- بالعكس. فلكونهم يخططون لجريمة رابعة نستطيع نحن أن نطمئن اطمئنانًا تاماً.

أعاد لُونْروتْ السماعة. وبعد ساعة كان داخل أحد قطارات «شركة سكك حديد الجنوب» قاصداً عقار «تْرِيسْتْ لُورْوَا» المهجور. ينساب جنوب مدينة قصتي جدول مسدود ذو مياه طينية، أهينت بالدباغة والأزبال. وتقوم على الضفة الأخرى للجدول منطقة صناعية حيث ينتشر، في حماية رئيس عصابة برشلوني، مستعملو المسدسات. ويبتسم لُونْروتْ مفكراً في أن أشهر هؤلاء -وهو المدعو ريدْ سْكَارْلاَشْ -سوف لن يبخل بشيء على من يزوده بخبر هذه الزيارة السرية. لقد كان أثيبيدُو رفيقاً لسْكَارْلاَشْ لذا تأمل لُونْروتْ إمكانيةً مستبعدةً في أن يكونَ سْكَارْلاَشْ هو الضحية الرابعة. غير أنه سرعان ما رفض ذلك... كان قد فك لغز المشكل على سبيل الافتراض، أما الظروف الخالصةوالوقائع (الأسماء، والاعتقالات، والأوجه، والاجراءات القضائية والجنائية) فلم تكن تهمه حاليا إلا على نحو يسير. كان يود أن يتجول، ويريد أن يخلد الى الراحة بعد ثلاثة أشهر قضاها في تحقيق مستقر. فكر في أن تفسير الجرائم كان كامناً في مثلث بدون اسم، وفي كلمة يونانية مغبرة. وكاد السر يبدو له شفافاً، فخجل من كونه خصص له جهد مائة يوم.

وقف القطار عند محطة شحن مقفرة فترجل لُونْرُوتْ. كان الوقت أحد تلك الأماسي الساجية، التي تحمل سماتٍ أوقات الفجر، وهواء السهل المعكر رطباً وبارداً. مضى لُونْرُوتْ خلال الخلاء فرأى كلاباً، ورأى قاطرة فوق سكة حديد مهجورة، ورأى الأفق، ورأى فرساً مفضضاً يكرع الماء المهين من إحدى البرك. وكان الليل يرخي سدوله حينما رأى الشرفة المربعة فوق ڤيلا تْريسْتْ لُورْوَا تضاهي في علوها أشجار الكالبتوس الكالحة التي تحاصرها. وفكر أن شروقاً واحداً وغروباً واحداً فقط (شعاعاً قديماًمن الشرق وآخرمن الغرب) يفصلانه عن اللحظة التي ينتظرها الباحثون عن الاسم بشغف.

كان هناك حاجز صدئ يرسم الحدود غير المتناسبة للعقار، وكانت البوابة الرئيسية موصدة. ودون أن يخامره أمل في الدخول، قام لُونْرُوتْ بدورة حول السياج. وحين وقف مجدداً بإزاء البوابة التي يتعذر اقتحامها، مرر يده بين القضبان، كما لو بصورة آلية، إلى أن عثر على المزلاج. فاجأه صرير الحديد، غير أن البوابة برمتها، وبسلبية مضنية، أفسحت له الطريق.

تقدم لُونْرُوتْ بين أشجار الكالبتوس، فداس أجيالاً مندغمة من أوراق جافة متصلبة. كان منزل تْريسْتْ لُورْوَا، إذا شوهد عن كثب، مكتظاً بالتماثلات غير المجدية والتكرارات الخرقاء: هكذا يقابل تمثالَ دْيَانَا الجامد والمنصوب في كوة معتمة، دْيَانَا أخرى في كوة مقابلة، وتنعكس شرفة في شرفة غيرها، وينفتح درج مضاعف على بهو

مضاعف، ويلقي نصب هرْميسْ ذي الوجهين بظلاله المرعبة على الأرض. دار لُونْرُوتْ حول المَنزل، مثلما دار من قبل حول العقار، و فحص كل شيء. رأى تحت مستوى الشرفة ستاراً حاجباً ضيقاً فدفعه وإذا بضع درجات من رخام تنحدر الى قبو. وبما أن لونْرُوتْ كان قد حدس من قبل ميولات المعماري الجمالية فإنه توقع أن يكون في الجدار المقابل للقبو سلم آخر. عثر عليه فصعد درجاته، ومديديه فاتحاً، في السقف، باباً سرياً معداً للخروج.

هداه شعاع إلى إحدى النوافذ ففتحها: كان هناك قمر أصفر ودائري يحدد في الحديقة الحزينة معالم فسقيتين ناضبتين. فحص لُونْرُوتْ جنبات المنزل فتسرب، من خلال غرف الخدمة والأروقة، إلى ساحات متناظرة، وإلى نفس الساحة مرات متعددة. وصعد، عبر سلالم مغبرة، إلى أبهاء دائرية، وتضاعف إلى ما لا نهاية في مرايا متقابلة، وأجهد نفسه في فتح النوافذ والتلصص من فرجاتها التي كانت تكشف له، في الخارج، نفس الحديقة المهجورة مرئيةً من ارتفاعات مختلفة ومن زوايا متباينة. أما في الداخل، فقد كان الأثاث مغطى بأزر صفراء، ولُفَّت الثريات في الشاش. استوقفته غرفة نوم، إذ لم تكن فيها سوى زهرة وقدح من خزف لكن التويجات المتداعية تناثرت لأول احتكاك. وبدا له المنزل في الطابق الثاني وفي الأخير، غير متناه بل يزداد نمواً. وفكر في «أن المنزل ليس كبيراً إلى هذا الحد، إنما يكبر بالعتمة والتماثل والمرايا والسنين الكثيرة وجهلي وهذه العزلة».

صعد، عبر سلم حلزوني، الى الشرفة. كان القمر ذلك المساء يعبر معينات النوافذ، التي كانت صفراء وحمراء وخضراء، فاستوقفته ذكرى مذهلة ملتوية. هجم عليه رجلان قصيران، من شيمهما الشراسة والنذالة، وجرداه من سلاحه، بينما حياه آخر، كان مفرط الطول، بجدية قائلاً:

-إنك لبالغ اللباقة. فلقد وفرت علينا من الوقت ليلة ونهاراً.

لقد كان المتكلم ريدْ سْكَارْلاَشْ. شد الرجلان يدي لونْرُوتْ بوثاق، واستعاد هذا صوته أخيراً وهو يقول:

-سْكَارْلاَشْ، ألست تبحث عن الاسم السري؟

كان سْكَارْلاَشْ لا يزال منتصباً بلا مبالاة. لم يكن قد ساهم في العراك الموجز، بل اكتفى فقط بمد يده لتلقّي مسدس لُونْروتْ. وعندما تكلم سمع لونْرُوتْ في صوته صدى انتصار واهنٍ، وحقدٍ في حجم الكون، وحزن لا يقل ضراوةً عن ذلك الحقد.

قال سْكَارْلاَشْ:

-كلا، إنما أبحث عن شيء فان وأشد قابلية للتلف، أبحث عن إيريكْ لُونْرُوتْ. منذ ثلاث سنوات، اعتقلت بنفسك شقيقي، في مقمرة بشارع طولون، ورميت به في السجن. وانتشلني رجالي من عملية تبادل إطلاق النار، فحملوني في عربة ورصاصة شرطي قابعة في بطني. لقد عانيت الاحتضار تسعة أيام وتسع ليالي داخل هذا العقار المتماثل والمهجور. دمرتني الحمى، وجعل جَانُوسْ البغيض ذو الجبهتين اللتين

يوليهما شطر المغارب وشطر المشارق - جعل منامي ويقظتي فظيعتين، وبلغ الأمر بي حد التأفف من جسدي، فأخذت أشعر بأن العينين واليدين والرئتين تضاهي في رعبها رعب ذينك الوجهين. وحاول رجل إيرلاندي أن يؤلف قلبي إلى عقيدة المسيح، فكان يردد على مسامعي حكمة «الگُويِيمْ»: كل الطرق تؤدي إلى روما. وخلال الليل، كان هذياني يتغذى من هذا المجاز، فكنت أشعر بأن العالم متاهة يستحيل الخلاص منها لأن كافة الطرق، حتى وإن اصطنعت التوجه صوب الشمال أو صوب الجنوب، تتجه في الحقيقة إلى روما التي كانت أيضاً السجن المربع الزوايا الذي يحتضر فيه شقيقي، وعقار تْرِيسْتْ لُورْوَا. وخلال تلك الليالي، أقسمت باسم الرب ذي الوجهين وباسم جميع آلهة الحمى والمرايا أن أدبر متاهةً للرجل الذي وضع شقيقي في السجن. ولقد دبرتها، وإنها لمتماسكة: عناصرها عالمُ هرطقة قضى نحبه، وبوصلةٌ، وطائفةٌ من القرن الثامن عشر، وكلمةٌ يونانية، ومديةٌ، ومعيناتُ دكان تاجر أصباغ.

لقد منحني الحظ المحطة الأولى من السلسلة. كنت، صحبة بعض الزملاء - من بينهم دَانْيَال أثيبيدُو - قد وضعت خطة لسرقة اليواقيت الزرقاء التي يملكها والي ربع الجليل. لكن أثيبيدو خاننا: سكر بالمال الذي قدمناه عربوناً له فشرع في العملية قبل أوانها بيوم واحد. ضلَّ داخل الفندق الهائل فاقتحم، حوالي الثانية صباحاً، غرفة نوم يَارْمُولِينْسْكِي. وكان هذا، حين استبد به الأرق، قد شرع في الكتابة.

والمرجح أنه كان بصدد كتابة بضع ملاحظات أو مقال حول اسم الله، وكان قد كتب من قبلُ هذه العبارة: «لقد تم النطق بالحرف الأول من الاسم». نصحه أثيبيدو بالتزام الصمت، لكن يَارمُولينْسكِي مد يده الى الجرس لإيقاظ كل قوى الفندق، فطعنه أثيبيدو بخنجره طعنة واحدة عند الصدر. كان الأمر أشبه برد فعل، ذلك أن نصف قرن من العنف علم الرجل بأن القتل هو أسهل الأمور وأضمنها... وبعد عشرة أيام، علمت من صحيفة الـ «Yiddisch Zeitung» أنك بصدد البحث في مؤلفات يَارمُولينسْكِي عن مفتاح موته. لقد قرأت «تاريخ الطائفة الهسيدية» فعلمتُ أن الخوف، الذي مصدره التبجيل، من ذكر اسم اللّه أدى الى ظهور مذهبٍ ديني يرى بأن ذاك الأسم قدير وخفي، كما علمت بأن بعض الهسيديين، في بحثهم عن الاسم السري، لم يترددوا عن تقديم قرابين بشرية.. أدركتُ أنك تخمن بأن الهسيديين قد قدموا الربِّي قرباناً فعملتُ على خلق ما يبرر ذلك التخمين.

مات مارسيل يَارمُولِينْسْكِي ليلة الثالث من ديسمبر، فاخترت ليلة الثالث من يناير موعداً لتقديم «الضحية» الثانية. ومات شمالاً فغدا الملائم مكان في الغرب. لقد كان دَانْيَالْ أثيبيدُو الضحية الضرورية لكونه يستحق الموت، ولأنه كان عصبياً وخائناً فإن إلقاء القبض عليه سيكشف مخططنا برمته. طعنه أحد رجالنا إذن، ولكي نبرز الصلة بين جثته والجثة السابقة كتبت فوق معينات دكان تاجر الأصباغ: «لقد تم النطق بالحرف الثاني من الاسم». و«وقعت» الجريمة الثالثة يوم ثالث فبراير، وكانت، كما

خمن تْرِيفيرَانُوسْ، محض تدبير خادع. إنني أنا گْرِيفْيوسْ -گينثبيرگ-گينثبورج. تحملت بصبر، وعلى وجهي لحيةٌ خفيفةٌ مستعارةٌ، أسبوعاً لا ينقضي في تلك الغرفة الفاسدة بشارع طُولُونْ، إلى أن اختطفني صديقاي منها وكتب أحدهما على أحد الأعمدة وهو على عتبة العربة المقفلة: «تم النطق بآخر حروف الاسم». وكانت الجملة تعلن أن سلسلة الجرائم «مثلثة». على ذلك النحو فهم الجمهور الأمر، بيد أني أدرجت، مع ذلك، علامات ملحاحة لتفهم أنت، أيها الباحث عن العلل إريكْ لُونْرُوتْ، بأن السلسلة إنما هي «رباعية»، وأن معجزة الشمال ومعجزتا الشرق والغرب تستلزم معجزة رابعة في الجنوب: فالتِّيتْرَاغْرَامَاتُون- اسم اللّه JHVH-رباعي الأحرف، والمهرجون وعلامات بائع الأصباغ توحي بوجود «أربعة» أطراف. لقد شددت بنفسي على فقرة من مُيسِّر ليوسدن، وهي الفقرة التي تعلن بأن العبرانيين يعدون توقيت اليوم من الغروب الى الغروب، كما توحي بأن الميتات وقعت في «الرابع» من كل شهر. بعثت المثلث المتساوي الأضلاع إلى تْرِيفيرَانُوسْ، وحدستُ بأنك ستضيف إليه النقطة الناقصة أي النقطة التي تحدد المعين التام، والتي تعين مسبقاً المكان الذي ينتظرك به موت محقق. إيريكْ لُونْرُوتْ، لقد هيأتُ كل شيء كي استدرجك إلى عزلات تْرِيسْتْ لُورْوَا هذه.

تلافى لُونْرُوتْ عيني سْكَارْلاَشْ فنظر الى الأشجار والسماء المقسمة إلى معينات متمازجة الصفرة والخضرة والحمرة. شعر ببعض البرودة،

وبحزن غير شخصي أو يكاد يكون مجهول الاسم. كان الوقت قد غدا ليلاً، ومن الحديقة المغبرة تناهى صراخ غير مجد يصدره أحد الطيور. وتأمل لُونْرُوتْ لأخر مرة، مسألة الميتات المتناظرة والمنتظمة، ثم قال أخيراً:

-في متاهتك ثلاثة خطوط زائدة، و أنا أعرف متاهة يونانية هي عبارة عن خط وحيد، مستقيم. وبما أن العديد من الفلاسفة ضلوا سبيلهم على هذا الخط، فإن محض مفتش شرطة يمكن أن يتيه بدوره أيضاً. سْكَارْلاَشْ: لو طاردتني في نازلة غير هذه، فلتزعم وقوع (أو لترتكب) جريمة في (أ) ثم جريمة أخرى في (ب) على بعد ثماني كيلومترات من (أ)، ثم جريمة ثالثة في (جـ) على بعد أربع كيلومترات من (أ)و(ب)، أي في منتصف المسافة بينهما، ولتنتظرني بعد ذلك في (د) على بعد كيلومترين من (أ) و(جـ)، أي في منتصف المسافة بينهما أيضا، ثم اقتلني في (د) مثلما ستقتلني الآن في تْرِيسْتْ لُورْوَا.

رد سْكَارْلاَشْ:

-أعدك، في المرة القادمة التي سأقتلك فيها، بتلك المتاهة التي تتألف من خط واحد مستقيم، لا مرئي، وغير متناه.

تراجع بضع خطوات، ثم أطلق النار بحرص بالغ.

مصادر القصص المترجمة

نُشرت «عن الصرامة في العلم» و«الجحيم» و«مثل القصر» و«مفارقة ثرفانتيس والكيخوطي» و«وردة صفراء» و«مسألة» ضمن كتاب EL HACEDOR (طبعة أَلْيَانْثَا، مدريد) 1984 . ونُشرت «مرآة الحبر» و«غرفة التماثيل» ضمن كتاب HISTORIA UNIVERSAL DE LA INFAMIA (طبعة أَلْيانْثا، مدريد) 1983 . ونُشرت «الدنو من المعتصم» و«الموت والبوصلة» ضمن كتاب FICCIONES (طبعة أَلْيانْثَا، مدريد) 1984 . ونشرت «إيماثونث» و «رجل في العتبة» ضمن كتاب EL ALEPH (طبعة أَلْيَانْثا، مدريد) 1987 . ونشرت «السور والكتب» ضمن كتاب -OTRAS INQUISI

CIONES (طبعة أَلْيَانْثَا، مدريد) 1981 . أما «البرلمان» و«المرآة والقناع» فنشرتا ضمن كتاب EL LIBRO DE ARENA (طبعة أليانثا) الصادر بالمكسيك سنة 1984 .

مدخل 7
عن الصرامة في العلم 13
الجحيم 15
مسألة 17
وردة صفراء 19
مفارقة ثيرفانتيس والكيخوطي 21
مثل القصر 23
غرفة التماثيل 27
مرآة الحبر 31
السور والكتب 37
المرآة والقناع 43
إيما ثونث 51
رجل في العتبة 61
الدنو من المعتصم 69
البرلمان 79
الموت والبوصلة 107

... ورغم ذلك، تبقى لكتابة (بورخيس) أصالة إعجاز لا تخطئها الملاحظة. بيد أن هذه الأصالة لا تتركز في أسلوب الكاتب، ولا في المزج بين أنواع الخطاب، ولا في سخريته الدقيقة، ولا في رموزه المستمدة من أساطير الفكر البشري، ولا في محاكاته لكتابات أخرى تنتمي الى بيئات ثقافية بالغة العتاقة والاختلاف، وإنما تتركز في مساءلة الأدب ذاته بشكل منهجي، وفي مساءلة البنيات وأوضاع التلفظ التي ينهض عليها صرح الكتابة.

إبراهيم الخطيب (1945). صدر له: «نظرية المنهج الشكلي» (1982)، «النقد والحقيقة» (1985)، «مورفولوجية الخرافة» (1986)، «المرايا والمتاهات» (1987)، «البستان» (1992).